

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00840 8779

99-65765

put Nov 80h

v315



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

p. 86 -> 90

ITY

الج

PS
7526
B29x
1932

ناتج الألف العربي

في

العصر الجاهلي

السباعي السباعي
مدرس بدار العلوم

حق الطبع للوالم

١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م

مطبعة العلوم بشارع الخليل بمخينة لاط

OCLC
311528253

B.11039255
1119943X

892.709

Si / 1 h

V. 1

110, 9

ك. ك. ك.

Good Luck.

Thank you!

and

good Luck to
you too!

19743

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

تاريخ الادب العربي

في العصر الجاهلي

ادب للعنه و تاريخه

انه لخرى بنا قبل التعرض لدراسة أدب اللغة وتاريخه أن نعرض الكلمة
الأدب نعالجها مفردة غير منسوبة الى اللغة معالجة تسايرها منذ الطفولة الى
أن ا دتمل معناها وصار الى الحد الذي نعرفه لها الآن والذي عنده وقعت
تلك النسبة حتى اذا ما تعرضنا لمعنى الادب نكشف عنه ونبين الغرض منه كان
قولنا واقعا على أساس وألفينا ذلك المعنى سهل المأخذ على آذاننا وطيد الاستقرار
في أذهاننا .

(*) ولعل أول معنى عرف لكلمة الأدب هو وقوعها مصدرا للأدب يأدب
اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاما يحتفل به ويدعو اليه والاسم من ذلك
ذلك المأدبة على أن هذا الفعل استخدم من الباب نفسه ويغلب أن يكون ذلك
في الوقت عينه متعديا بمعنى دعا الى مأدبته ومن ذلك قول طرفة بن العبد ويستشهد
به على المعنيين

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
يقول نحن في المشتاة أى الجذب ندعو الدعوة العامة وهى الجفلى فلا ترى
الآدب فينا أى صانع المأدبة أو الداعى اليها ينتقر فى دعوته فيختص بها
فريقا بحب غيره والنقرى ضد الجفلى

مكثت الكلمة على هذا المعنى بشعبتيه السابقتين العصر الجاهلى كله تقريبا
حتى اذا ما كان قبيل الاسلام تخطت متعدية ومن باب ضرب أيضا الى معنى
آخر هو التهذيب والرياضة فقبيل أدبه يأدبه بمعنى هذبه وثقفه كما قيل أدبه
بالتشديد على سبيل المبالغة والتكثير بمعنى علمه بل وبمعنى عاقبه على إساءة
لان العقاب يحقق معنى الادب على هذا الوجه وهو كل رياضة محمودة يتخرج
بها الانسان فى فضيلة من الفضائل ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لا بنته هند
وهو يصف لها أبا سفيان بن حرب زوجا على غير تسمية « يؤدب أهله
ولا يؤدبونه » وقولها له فى الجواب عن ذلك « انى لأخلق هذا لوامقة
وانى له لموافقة وانى لاأخذته بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتى »

ولما أن جاء الاسلام بتعاليمه الداعية الى مكارم الاخلاق انتشر هذا المعنى
وشاع وأكثر الناس استعماله أيما اكثار وبخاصة قول النبي صلى الله عليه وسلم
« ادبنى ربى فأحسن تأديبى » ثم توسعوا فى كلمة الآدب فأطلقوها على كل
أماله أشرفى التهذيب وحضوا لذلك على التأدب بالمأثور ولا سيما الشعر لما فيه
من الدعوة الى المكارم والتسابق الى المحامد فمن ذلك قول عمر بن الخطاب
لابنه « يا بنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك »
وقول معاوية « اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم فان فيه ما أثر أسلافكم
ومواضع ارشادكم » وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده « أدبهم برواية شعر
الاعشى فانه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره »

وبهذا انتقلت كلمة الأدب الى معنى الظرف في الخلق وحسن التناول للقول
وكلمة التأديب الى العمل في سبيل ذلك وطاوعتها كلمة التأديب ففعل أدب
يأديب من باب كرم فعل السجابا والطباع فهو أديب إذا حسن أدبه ومن
ذلك قول سالم بن وابصة وهو إسلامي من قصيدة يحض فيها على مكارم
الاخلاق والتظرف في القول :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما أديبا ظريفا عاقلا ماجدا حرا

إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محملا لزلته عذرا

ومن هنا بدأت كلمة الادب تنحرف عن معناها اللغوي الى هذا المعنى
الاصطلاحي ولما أخذ القوم في تدوين بعض العلوم من دينية واسانية آخر عهد
الدولة الاموية انحازت هذه الكلمة الى حذق علوم اللغة لما لها من الاثر في تقويم
اللسان واستكمال أداة البيان ثم كان تقدم العلوم وارتقاء المعارف أيام الدولة
العباسية بما حدث من تقسيم وتفصيل واستجد من ترجمة ونقل فجعل التأديب
مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فيها الأئمة من الرواة والعلماء وقصر الادب
على مآثور اللغة من نثر وشعر فعكف الناس على دراسته بهذا المعنى حتى وضعت
له كتب خاصة عرفت بكتب الادب كما عرف غيرها بكتب الفقه أو النحو
مثلا. وقد جارت كلمة الادب في ذلك كلمة الاديب فوسم بها كل من حذق
الادب على هذا الوجه وعرف من سائر العلوم ما هو للادب وسيلة أو للادب به
علاقة وله منه فائدة إذ لا يجمل بالاديب أن يكون من غير الادب عاطلا فان
الادب ثقافة خاصة لها حاجة وبها افتقار الى أن ترتكز على ثقافة عامة بدونها
يقل بهام الادب وتذهب حلاه

قلنا إن الادب صار على عهد الدولة العباسية مهنة تصدى لها المؤدبون
وتصدرهم في ذلك الأئمة من الرواة والعلماء ولكنهم لم يتجاوزوا كثيرا

مأثور اللغة في روايته ونسبته على أيدي الرواة أو شرحه والافادة منه على أيدي الادباء فبقيت كتب الادب ما بين كتب رواية تخاص للمأثور مجردا وكتب دراية تبحث في معناه إجمالا أو تفصيلا على أن الأخيرة لم تخل من من أبحاث خارجة عن معنى الادب وهي بنسبتها الى العلمية أخرى كأبحاث انوية من فقه اللغة وأخرى نحوية أو صرفية من علمي النحو والصرف وهكذا استمرت الأبحاث جامدة عند معنى الادب دون تاريخه الذي لا يتحقق غير التحليل والاستنباط وتتبع أطوار المأثور بأنواعه ضعة وارتفاعا وتلمس العال لذلك والاسباب والانكباب على دراسة البيئات من عامة وخاصة لمعرفة ما أنتجته في ذلك التاريخ من آثار. فتاريخ الادب وهو حياته يعتريه ما يعتري حياة الامم في كل مظاهر التاريخ السياسي العام. نعم ان المتقدمين في ذلك العهد وبعده قد عالجوا أبحاثا هي من حياة الادب في الصميم كالموازنة بين شيء في عهدين أو بين شاعر وآخر جملة أو في قصصين وكما لكلام فيما طرأ على اللغة بالاختلاط الا أن ذلك لم يتناول في مجموعه كل ما لحياة الأدب من أبحاث كما لم ينسجم مرتبا في سلك النظام الذي ينبغي أن تكون عليه تلك الأبحاث. ثم لم يزل تاريخ الادب على تلك الحال من النقص في بعض وجوهه وانتشاره كله على غير شخصية قائمة في بطون الكتب الى أن هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرغون الكثير من فروعهما حتى أوصلوه الى صورة متميزة قائمة فاذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب وكان لهم في ذلك طريقان إما دراسته موضوعا موضوعا ينتقلون بكل موضوع من عصر الى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل وإما دراسته عصرا عصرا يتناولون في كل عصر موضوعات الادب واحدا واحدا كما هي الحال في التاريخ السياسي العام وهذا هو المتبع والكثير

فعل المستشرقون ذلك وحيثما أنشئت دار العلوم على نظارة على مبارك باشا
للمعارف المصرية اذ ذاك كي تنهض باللغة العربية في بلد انتهت اليه زعامة الناطقين
بالضاد كان لازما أن يكون تاريخ الادب من أول ما يعنى بدراسته في هذا
المعهد الجديد وفعلا كان وعهد بذلك أول الامر الى طائفة لعل أكثرهم غناء
كما هو بلا شك أبقاهم أثرا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله صاحب المواهب
الفتحية با كورة ما ألف بالعربية في هذا الباب لكن الشيخ طيب الله ثراه كأنه
نظر في الادب الى أنه فن لا يستند الى علم أو أن دراسته بعيدا عن تاريخه تكون
الاديب فنهج في مواهبه منهجا هو الى دراسة الادب أقرب منه الى دراسة
تاريخه اذ لم يكمد ينهى على عجل منه في تصديره ببضعة أبحاث عامة على الطراز
القديم حتى انتقل مسرعا الى المأثور يؤدب به بنيه تأديبا جعل دعائمه الاربع
القصائد فالمحاكمات في الشعر ثم الرسائل فالخطب في النثر فشرح عشر قصائد
أجرى بعدها عشر محاكمات ثم ساق من بعدها عشر رسائل أتبعها مثلها من الخطب
دون أن يتقيد في ذلك بعصر معين أو يجري على سنن خاص اذ كان مهيمه كما
سبق الامام بطائفة من المأثور تشرح وتدرس كما يتطلب المعنى ويقتضى الاستطراد
على أنه لا يبعد أن يكون رحمه الله قد سيق الى ما فعل لا مدفوعا بتلك النظرة
الفنية الآتية بل بما تملكه من حب القديم يجري على سننه ويهتدى بهديه وبخاصة
اذ وجد طريقه معبدة أمامه بينا الجديد لا يزال مغلق السبل غير واضح الاعلام.
ولهذا لم تكدد دراسة الادب تسند الى المرحوم حسن افندى توفيق أهدأ بناء دار العلوم
الذين زاووا التدريس حقبة في ألما نيامهد الاستشراق عامة وفي العربية خاصة حتى أبرز
لما صورة لتاريخ الادب هي على صغرها يصح أن تكون بحق النموذج الاول فيه ويجب
على كل دارس له من بعده مهما بدع وفصل ان يكون موقفه منه موقف الحريري في
مقاماته من البديع حيث يقول على سبيل التمثيل

فلو قبل ميكها بكيت صباة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهبج لى البكا بكها فقلت الفضل للمتقدم
الى هنا ولنا لفظة الى ما تقدم نوضح بها أمراً جديراً بالتوضيح
ذلك أن الادب أدخل فى الفن منه الى العلم ولذا يواتى ذوى الطباع والاستعداد
أكثر مما يواتى ذوى الجد والاجتهاد وان لنا على ذلك لآية بيّنة هى النبوغ فى
باب من أبوابه أو أكثر وقلماء يكون ذلك بالقليل من العمل يوم به اناس
دون اناس يصلون ليلهم بنهارهم كدحا ونصباً ثم هم لا يخرجون بصفة الاديب
فتراهم لا يزالون بعيدين عن أن يجودوا نثراً أو شعراً فى أى باب يتخيرون
على أن ملاكة الادب مع هذا لا تنهياً وسائلها ولا يتم نصيحها بالاعتكاف على
المأثور وحده يحفظ ويروى بل لابد من درس تاريخه والاحتكام فى ذلك الى
ما قعد من قواعد ووضع من نظم بحكم الظروف وتحت تأثير البيئات مع مساهرة
عوامل النمو وطبائع الارتقاء. واذا تكون دراسة تاريخ الأدب وسيلة الى تكوين
الأديب ويكون من وقف عند الوسيلة بعيداً عن الغاية جديراً باسم العالم
دون الأديب .

هذا وإذ قلنا ان المتبع فى دراسة تاريخ الأدب لآية أمة أن يسايريه تاريخها
السياسى جنباً الى جنب فقد وجب اذا أن يكون أول عصر للأمة العربية
عصرها الجاهلى ومدته مائتا سنة على الأكثر قبل الاسلام غير أن كلمة عن
العرب فى موطنها وأصلها وأقسامها وقبائلها وأيامها واجبة قبل ذلك
أن تكون .

العرب

موطنها - أصلها - أقسامها - مشهورات قبائلها - أيامها الكبرى
ذوات الاثر في الادب .

اولا - موطنها

موطن العرب الاول الذي منه درجوا فانتشروا في الارض هو تلك الجزيرة
المنسوبة اليهم في الجنوب الغربى من آسيا وهى جزيرة متسعة الارحاء مترامية
الاطراف يتصل بها من الغرب بحر القلزم المعروف بالبحر الاحمر ومن الشرق
بحر فارس وعمان ومن الجنوب بحر الهند وتضرب شمالا إلى الشام والعراق
فيدخل فيها جزء من كلتا باديتيهما وعد بعضهم منها أرض الجزيرة بين دجلة
والفرات لسكنى العرب قديما إياها

وهى تنقسم أربعة أقسام الحجاز واليمن ومع كل تهامة ثم العروض ونجد
ويكاد يكون ذلك التقسيم طبيعيا فان الحجاز وهو سلسلة جبالها العظيمة يمتد
في الغرب منها على مقربة من البحر الاحمر من الجنوب إلى الشمال بين أرض
منخفضة غربية هي التهامم وأخرى مرتفعة شرقية هى النجود وفى نحو الثالث
من تلك السلسلة جنوبا تتفرع جبال تثليث قليلا إلى الشمال الشرقى. فما إلى
الشمال منها الحجاز وتهامته. وما إلى الجنوب اليمن وتهامته غير أن اليمن تمتد على
ساحل بحر الهند جنوبا إلى بحر عمان شرقا. ثم مالى الشرق من الحجاز نجد إلى
بحر فارس وبادية العراق شرقا وإلى بادية الشام شمالا. أما الارض المعترضة بين

اليمين جنوبا ونجد غربا وشمالا وبحر فارس شرقا فهي العروض لاعتراضها بين
كل هذه الاقسام ما عدا الحجاز الذي ينفصل عنها بجزء من نجد يمتد من جنوب
جبال سامى الى شرق جبال تليلث
وهذه كلمة عن كل قسم تتنظم حاله الطبيعية وما كان عليه سياسيا
قبل الاسلام

١ - الحجاز

إقليم طيب الهواء ليس به كسائر بلاد العرب نهر يجرى ولاكن فيه العيون
المتفجرة من الجبال المعتضدة بالسيول والامطار الممتدة من واد الى واد وعليها
قراهم ونباتهم من حبوب وخضر وفواكه ورياحين. ومن حيوانه الخيل الجيدة
والابل والضأن والمغز ومن وحوشه بقر الوحش وحمرة والغزلان والظباء
والذئاب والضباع والثعالب والفهود والنمورة والاسود. أما طيوره فمنها الدجاج
والحمام والرخم والنعام والحدأ واليوم والغربان
وللحجاز حاضرتان المدينة المنورة به ومكة المكرمة بهما متته
فمكة بالميم والباء ومن أسمائها أم القرى والبلد الامين وبها جميعا نطق
القرآن الكريم وتسمى كذلك صلاح وقد ورد كثيرا في الاشعار ولا سيما في
القديم. وهي واقعة في بطن واد تحف به من جميع جهاته الجبال فأبو قبيس من
الجنوب والشرق وحراء من الشرق والشمال وبه الغار الذي كان يتعبد فيه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيقعان من الشمال والغرب وثور من الغرب
والجنوب. وأول ما كانت سكنى مكة كانت لعاد ثم خلفهم عليها العالقة
ولما عظم أمر قحطان نزلها ابنه جرهم واليه تنسب جرهم الثانية لاجرهم عاد

فلم يزل أمر مكة بيدها حتى رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل. وفي جرحهم
أصهر اسماعيل وبقي هناك فملكوه عليهم وانتقل الامر من بعده الى ابنه نابت
ولكن جرحهم أخذته ثانية ومنها انتقل الى خزاعة من الازد من قحطان أيضا
فلم تزل فيهم مفاتيح البيت يقومون بسدائه حتى أعاده الى ذرية اسماعيل قصي
ابن كلاب ثم أنشأ قصي دار الندوة بمكة فكانت محل تشاور قريش وكان اليه
أمرهم حتى مات فانتقلت الرياسة الى ابنه عبد مناف ولكن بقيت سدانة البيت
مع ابنه عبد الدار قيل لأنه هو الذي انطلق بمفاتيحه ففتحه لقريش حين أخذها
أبوه من خزاعة. ومن عبد مناف انتقلت الرياسة الى هاشم بن عبد مناف
فالى عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فتح مكة
بعد الاسلام فانتقلت اليه رياسة القديم والحديث. ومما يذكر هنا اقراره صلى الله
عليه وسلم بنى عبد الدار على سدانة البيت كما كانت لهم من قبل
هذا وقد أ كسب مكة وضع البيت بها منذ عهد ابراهيم لدى العرب عامة حرمة
دونها كل حرمة وتقديسا ما أوغله في القلوب من تقديس فكان الملوك من حمير
وكندة ونخع وغسان يحجون اليها ويدنون لقريش بها ويكفي من تعظيمهم
إياها أن جعلوا حولها شقة حراما يحرم صيدها وقطع نباتها. ومما ضاعف في
عظمتها وفي حرمة البيت بها ما فعل الله بأصحاب القيل وقد جاء أبرهة يقودهم
يريد هدم الكعبة وصرف العرب عنها الى حج القليس باليمن وهي كنيسة
ابتناها بصنعاء وبالغ في تجميلها فارسل الله عليه طيرا أبايل ترميهم بحجارة
من سجيل فيجعلهم كعصف مأ كول. ثم زادت تلك العظمة قدسا وجلالا بمجيء

الاسلام معظمًا أمر هذا البيت وجاعلا الحج اليه فريضة على كل مسلم ومسلمة
استطاعا اليه سبيلا

والمدينة هي الحاضرة الثانية وقد غلب عليها هذا الاسم واسمها القديم يثرب
وبها نطق القرآن الكريم وقد سماها الله تعالى الدار في قوله (والذين تبوءوا
الدار والايمان) وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة من حسن الراحة
أو تمام النقاء . وهي تقع في مستو من الارض شماله جبل أحد وجنوبه جبل عير
وشرقه البقيع وغربه العقيق . وهي قديمة العمارية كمكة قيل أول من نزلها يثرب
ابن عبيل من العماقة وبه سميت ثم خلف العماقة عليها قوم من بني اسرائيل
نزحوا اليها على عهد موسى بن عمران . وما زالوا بها حتى كان سيل العرم باليمن وتفرق
من أهله كثير كان منهم الاوس والخزرج الذين امتلأ كوها على بني اسرائيل
فلم تزل بيدهم حتى هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكما شرف الله
مكة بالحج الى البيت بعد الاسلام شرف المدينة بشواء جثمان رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيها وبعده كثير من جلة الصحابة والانصار

هذا وبالْحِجَاز غير حاضريه من المدن والقرى والاودية كثير

منها الطائف في بطن من جبل غزوان شرق مكة وهي شديدة البرودة
كثيرة الفاكهة وأهلها من ثقيف وقيل ثقيف من بقايا ثمود وبهذا كان يعير
الثقيفون وكان الحجاج من الذين يدفعون ذلك وهي احدي القريتين المذكورتين
في قوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)
فالقريتان مكة والطائف والرجلان الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود
من الطائف . وبين مكة والطائف واد كثير النخل هو عكاظ وبه كانت تقوم
سوق العرب الكلامية كما سيأتي بعد .

ومنها جدة فرضة مكة على ساحل بحر القلزم ميناء عظيمة كانت تنتهي اليها

المراكب من مصر واليمن وهى ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب. «وهى
المدينة التى خلقتها القصير»

ومنها خيبر إلى الشمال الشرقى من المدينة وهى مدينة قديمة ذات حصون
كانت لبني عنيزة من اليهود قبل الاسلام والخيبر فى لغتهم الحصن ولبنى قريظة
والنضير بعده وهى معروفة برداءة الهواء وكثرة الوباء وبجماها يضرب المثل
قال الشاعر

وقفت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بخيبر صالب
وكانت كثيرة النخل يحمل تمرها الى الجهات القصوى وفى ذلك يقول
الشاعر: —

فانك واستبضائك الشعر نحونا كمستبضع تمر الى أرض خيبر
وعلى مقربة من خيبر الى الشمال الغربى وادى القري وبه الحجر نزل ثمود
فى القديم. وبين خيبر والمدينة قرية فذك
وفرضة المدينة الجار ومقامها تقوم ينبع الآن. وعلى مقربة منها إلى
الجنوب الشرقى ماء بدر الذى تنسب اليه الغزوة الكبرى بعد الاسلام.

٢ — اليمن

اليمن اقليم متسع النواحي كثير الخيرات تسمى أرضه الخضراء لكثرة
مزارعها ونخيلها وأشجارها يخرج من الحبوب والفاكهة ما يخرج المنطقتان
المعتدلة والحارة وحيوانه حيوان الحجاز يزيد فى أهليه البقر والبغال والحمر
وفى بربه الزراف والقرودة فضلا على ما بأرضه من المعادن الكثيرة المتنوعة.
وهو ينقسم بضعة أقسام. فاليمن الاصلية على امتداد الحجاز جنوبا جبالا
وتهاثم وإلى شمالها الشرقى نجران كما إلى جنوبها الغربى حضرموت الممتدة

طويلا على ساحل بحر الهند وعلى هذا الساحل يمتد الشجر فهرة فظفار ثم عمان
المتصلة بساحلى عمان وفارس . وفيما بين هذه الاقسام كلها غربا وجنوبا وشرقا
والعروض شمالا توجد صحراء الاحقاف المعروفة بالربع الخالى وبها كان أصل
منازل عاد ولا يعرف عنها الا ن سوي القليل.

وقد شهدت اليمن حضارة قديمة تضارع فى جلالها وعظمتها أقدم الحضارات
وأول ما عرف فيها الملك للعرب كان لعاد وهذه هى الطبقة العادية وخلفها
القحطانيون وعظم ملكهم فى الحميريين والتبابعة من بعدهم ومنهم بلقيس ولم
يزل ملكهم فى سلطان وعتاد حتى جاء السيل فتنفرق كثير من شعوبهم فى سائر
أنحاء الجزيرة وضعف أمر من بقى منهم باليمن ومن ثم تمكنت الحبشة من
امتلاكها ثم الفرس من بعدها وبها كانوا الى الاسلام .

واليمن (شأن كل بلاد كثيرة الخيرات قديمة العمران) ملائى بالمدن التاريخية
ذات الحصون المنيعة والقصور المنيفة والآثار التى تشهد على رقى عادى له فى
التاريخ مقام كبير وقد بدأت المكشوفات الحديثة تخبر عما هو هنالك دفين .
فحاضرتها صنعاء فى جنوب اليمن الاصلية وهى من أحسن البلاد سكنا
وأطيبها هواء تكاد تحاكي دمشق فى كثرة مياهها وأشجارها وبظاها قصر
غمدان الكثير ذكره فى الاشعار .

ومن مدنها مأرب الى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت من أجمل بلاد
اليمن حسن تربة ولطف هواء وهى الموصوفة فى القرآن بالبلدة الطيبة وتسمى
أيضا سبا نسبة الى بانيها وبنو سبا هذا هم الذين أخبر القرآن أن كان لسكنهم
فيها آية جنتان عن يمين وشمال فأعرضوا فارسل الله عليهم سيل العرم وبدلهم
بجنتهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل

ومنها عدن وهى فرضتها على ساحل البحر المحيط وكانت أعظم المراسى

ومحط التجار من عامة الاقطار « الحجاز والحبشة والسند والهند وجزائر المحيط والصين »

٣ - العروض

والعروض على ما تقدم من موقعها تنقسم قسمين داخلي هو اليمامة وساحلي هو البحرين. فاليمامة أكثر بلاد العرب نخيلاً ومنها في القديم زرقاء اليمامة المضروب بها المثل في حدة البصر وفي الحديث مسيلمة الكذاب وقصبتها اليمامة. والبحرين كثيرة النخل كذلك وفيها غيره الحب والفواكهة ومن مدنها الداخلية هجر المضروب بها المثل في تصدير التمر ومن الساحلية القطيف.

وكانت اليمامة في القديم لجديس وطسم والبحرين لعاد وجاء من بعدهم في الاثنتين القحطانيون ومن كان بعدهم على اليمن الى أن جاء الاسلام إلا أن اليمامة وحدها آخر عهد الفرس كانت لبني حنيفة وآخرهم هوذة بن علي الذي كتب اليه النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب الى الملوك

٤ - نجد

أما نجد فالحجاز نباتا وحيوانا إلا أنها أحسن أرض في جزيرة العرب هواء وأطيبها شمياً ولذلك انبرى الشعراء قديماً وحديثاً يلهجون بذكرها ويتزنون برياً عطرها وشذاها قال الشاعر

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار
ألا يا حبذا تفحات نجد وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحى نجداً وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا بانصاف لهن ولا سرار

وهي تنقسم قسمين نجد السافلة وهي ما وليت العراق وبها صحراء الدهناء
ونجد العالية وهي ما ولي الحجاز وفيها أجأ وسلمى جبلا طي^١ الوارد ذكرهما في
كثير من الاشعار ومنها أرض العالية التي كان يحميها كليب التغلبي ومن أجلها
قتل فنشبت حرب البسوس من بعده أعواما طويلة بين بكر وتغلب ابني وائل.
هذا ولا تعلم لنجد سكنى في القديم قبل ولد عدنان ومن خالطهم من
القحطانيين بعد السيل

مدن البوادي

ومن المدن العربية ببادية الشام تيساء بالغرب منها وكانت حاضرة طي^٢ وبها
الابلق الفرد حصن السموعل بن عادي ثم دومة الجندل بالوسط وكانت لبنى
كلب وفيها كان التحكيم بين علي ومعاوية.
ومنها ببادية العراق الحيرة مقام الملوك اللخمين وفيها الخورنق والسدير
المعروفان ثم الانبار وكان الاكسرة يدخرون بها الحبوب كيلا تسوس .
ومنها بالجزيرة ديار بكر وريبعة ومضر الثلاث نسبة الى من سكنها من أبناء هؤلاء
على أنهم سكنوا معها غيرها هناك كالموصل ونصيبين كما نرح الى الجزيرة غيرهم
من القبائل الاخرى كالطائيين .
هذا وما كان يدور على ألسنة الشعراء كثيرا ذكر الدارات والبرق كدارة
جبل وبرة وهمد يقصدون بالاولى كل أرض مستديرة بين جبال تكون ذات
سهولة وبياض وبالثانية ما كان فيها غلظ وبريق من حجارة ورمال تختلطان
بالطين . وقد ذكر صاحب القاموس أن البرق تنيف على المائة وعددها منسوبة
الى ما أضيفت اليه مرتبا على الحروف كما ذكر أن الدارات تنيف على المائة والعشر
وذكرها كلها كذلك بعد أن قال رحمه الله انها لم تجتمع لغيره مع بحمهم وتنقيهم
فجزاه الله خيرا .

ثانيا- أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها

العرب ذالك الجيل من الناس الذين كان لسانهم العربية وكانت سكناتهم
الاولى تلك الجزيرة المنسوبة اليهم سيان في ذلك الحضر سكان المدن والبدو
الرحل الذين اختصو باسم الاعراب فأطاق اسم العرب لذلك علي الحضر أو كاد.
والعرب أمة سامية ترجع في أصل نسبها الى سام بن نوح عليه السلام وقد
اعتاد المؤرخون تقسيمها قسمين عربا بائدة وهم الذين بادت ذرارهم وانقرضت
تفاصيل أخبارهم قبل مجي الاسلام بقرون وأخرى باقية وهم الذين جاء الاسلام
والجزيرة العربية تعج بأبنائهم وتضيق عن أخبارهم

فالعرب البائدة وقد يقال لهم العاربة أو العرباء يرجعون عن قرب إلى إرم
ابن سام والمشهور من قبائلهم عاد بن عوص بن إرم وثمود بن جابر بن إرم
وعبد ضخم وجديس ابنا إرم وطسم وعمليق ابنا لاوذ بن إرم .
فعاد كانت منازلهم الاولى بالاحقاف وهم الذين بعث الله اليهم نبيه هودا
عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح العقيم سخرها عليهم سبع ليال وثمانية
أيام حسوما كما أخبر القرآن وكانوا قد بلغوا من القوة واتخاذ المصانع لاخلود
مبلغا عظيما ولذلك يقال للشيء يكون قديما وعظيما عادي نسبة اليهم

وثمود كانت منازلهم الحجر بوادي القرى وقد بعث الله اليهم نبيه صالحا
عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كما جاء
بذلك أيضا القرآن ولم يكونوا أقل من عاد قوة وعتادا فقد جابوا الصخر بالواد
وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارحين

وعبد ضخم كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك ويقال إنهم أول

من وضعوا الخط العربي كما يقال إنهم يرجعون الى ثمود ولذلك قد تنسب
ثقيف بالطائف الى بقايا ثمود التي كانت بعيدة عن مهالكهم
وجديس وطسم ويقال إنهما من عاد كانت منازلهم باليمامة فأباد بعضهم
بعضا بالحرب في أخبار طويلة يذكرها القصاصون ليست محل ثقة واعتقاد
وعملق كانت أمة عظيمة يضرب بها المثل في الطول وتفرقت منها شعوب
سكنت عمان والبحرين والحجاز والعراق والجزيرة والشام ومصر ومنهم بالاخيرة
فراعنة الرعاة وقد بادوا جميعا أو اختلفت شخصياتهم في أمم غيرهم
ومن القبائل التي تنسب إلى البائدة أيضا جرهم الاولى تميزا لها عن جرهم
الثانية وقد يكون التمييز بجرهم عاد وجرهم قحطان وكذلك أميم وجاسم ووباربل
ومدين أبناء مدين بن ابراهيم على بعض الاوال وهو ضعيف
والعرب الباقية قحطانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة عندهن وسم
الاولى بالعاربة والعرباء كما يقال لهم العاربة أو العرباء عندهن قصر على الاولى
لفظ البائدة وهم منسوبون إلى قحطان بن عابر بن شاخ بن أرخشند بن سام
وعدنانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة كالقحطانيين كما يقال لهم المستعربة
فقط عندهن خص القحطانيين بالمتعربة وهم منسوبون إلى عدنان بن أدد بن
مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن اسماعيل بن ابراهيم
عليهما السلام وأبو ابراهيم آزر أو تارح بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شاخ
ابن أرخشند بن سام وليس الى النسب فيما خلف عدنان طريق صحيح انما
المجمع عليه أن اسماعيل ابن ابراهيم و ابراهيم يرجع الى سام فهذان الشعبان الباقيان
ساميان كالشعب البائد واذا تكون الامة العربية جمعاء سامية من غير ما خلاف
فيلتقي العدنانيون بالقحطانيين في عابر والقحطانيون بالبائدة في سام

القحطانيون

ولد قحطان يعرب وجرهم فانتقل جرهم الى الحجاز كما سبق ولما جاء اسماعيل مكة خالطه بنوه بها واستوطنوها معه وهم جرهم الثانية وبقي يعرب باليمن فولد يشجب وولد يشجب سبأ وأنجب سبأ في اثنين حمير وكميلان واليهما ترجع جميع قبائل اليمن

فالى حمير ترجع قضاة والمشهور من أحيائها سبعة جرم ونهد وبقيتا باليمن وعذرة بجنوب الحجاز وجهينة وبلى شماله بالترتيب وبهراء شمالهما فيه وعلى شاطئ الفرات تم كلب بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام. والى عذرة ينسب العشق والتيم ومما يحكى فى هذا أنه قيل لرجل منهم دابال العشق يقتلكم يابنى عذرة فقال لان فينا عنة وجمالا وقيل لا آخر منهم دابال الرجل دنكم يموت فى هوى امرأة انما ذلك ضيف فيكم يابنى عذرة فقال أدا والله لو رأيت النواظر الدعج تحتها المباسم الفاج فوقها الحواجب الشرج لا أخذموها اللات والعزى وذكر بعض النسابة أن قضاة من العدانية والصحيح ما تقدم فقضاة واسمه عمرو هو ابن دالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن دالك بن حمير واهل ذلك شبه عليهم من أن أم قضاة دات عنها دالك وهى حامل فيه فتزوجها دعد بن عدنان فولدت قضاة على فراشه فتبناه فنسب اليه ثم رحل قضاة الى اليمن فكان له دلك بالشحر ويقال ان له قبرا معروفا بجبل هناك

والى كميلان ترجع شعوب كثيرة كانوا يتداول الملك وبني حمير باليمن ثم انفردت بنو حمير به وبقيت بطون كميلان على كثرتها تحت إمرتهم الى أن تقاصر ملك حمير فكانت الرياسة بالبادية لبني كميلان. وأشهر أحياء كميلان أحد عشر «١» طيء وهم أكثر أحياء اليمن بطونا فالإيهم يرجع خمسة عشر بطنا نزع

منهم كثير الى الحجاز ونجد فغلبوا بنى أسد على أجبأ وسامى فعرفا بجبلى طيء
 وخرج بنو أسد الى الشرق من ذلك والى بولان أحد بطون طيء ينسب
 الرجال الذين قيل فيهم إنهم أول من كتبوا بالخط العربى بعد العرب
 الاولى «٢» الازدوهم بطون كثيرة باليمن وعمان ومنهم خزاعة بمكة والاوز
 والخزرج بالمدينة والغسانيون آل جفنة بالشام «٣» لخم ومنهم المناذرة ملوك الحيرة
 بالعراق «٤» كندة وكان لهم ملك قديم بحضرموت وآخر بعده بنجد ودومة
 وكان آخر ملوكه حنجر والد امرئ القيس «٥» عاملة بشمال الشام . ثم مذحج
 وهمدان ومراد وجذام وأشعر وأنمار ولم تعرف لبطونهم فى القديم خارج
 اليمن ديار

وبعض النسابين يقولون إن أنمار اليمن أولاد أنمار بن نزار العدناني
 ولاكنهم أقاموا بها فنسبوا اليها والصحيح أنهم من اليمن وجاء اللبس من أنه
 كان لأنمار بن نزار بنت زوجها من أراش بن عمرو الكهلاني فولدت له ولدا
 أسماه على اسم جده لأمه. فأنمار اليمن إذا هم بنو أنمار بن أراش وأنمار الحجاز
 بنو أنمار بن نزار على أنه قيل إن أنمار بن نزار لا عقب له إلا هذه البنت
 والأنمار فى قحطان دون عدنان وفى هذا وجهه .

العدنانيون

ولد عدنان معدا وولد معد نزارا وأنجب نزار فى أنمار وإياد وربيعة ومضر .
 فأنمار سبق القول فيه والراجح أنه لم يعقب الا فى تلك البنت التى زوجها من
 أراش الكهلاني كما سبق وأنمار لليمن دون الحجاز .
 وإياد فارق الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق وبها أقام ولم يزل النسب
 راجعاً إليه فى كل بنىه اذ لم يصلوا الى كثرة على تطاول الايام .

وربيعة أعقب في ضبيعة بالحجاز ولم تكثر بطونها وفي أسد ربيعة وفيها
كثرة فتنها عنزة بنخير وجديلة ومن جديلة عبد القيس بتهامة نجد والبحرين
والنمر بالجزيرة ووائل ومن وائل تغلب بالبحرين ونجد والحجاز والشام.
وبكر ومن بكر بنو حنيقة وبنو عجل باليمامة وبنو شيبان بالبحرين ومنهم سدوس
ومضر أعقب في قيس عيلان والياس

ومن قيس عيلان جاءت الكثرة التي لم تبين معها بطون ربيعة فغلبت قيس
على سائر العدنانية حتي قيل قيس ويمن فمنها عدوان بالطائف وسليم بعالية نجد
قرب خيبر ومازن وباهلة باليمامة وغطفان بين جبلى طيء ووادي القرى الى
المدينة ومنها أشجع وعبس وذبيان ومن ذبيان فزارة ومن فزارة بدر ومازن
الثانية ثم من قيس أيضا هوازن وهي أكثرها بطونا فمنها ثقيف على الاصح بالطائف
وبنو سعد بالحجاز وبنو جشم بالسروات وهي تلال تفصل بين نجد وتهامة من
البحرين الى الشام ثم بنو عامر باليمامة والبحرين ونجد والحجاز والشام والجزير
ومنهم على التسلسل بنو كلاب فبنو هلال فبنو نمير فبنو عقيل

أما الياس فاليه يرجع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعقب في قعدة وطابخة
ومدركة. فقمعة لم يشتهر عقبه وطابخة منه مزينة بشمال الحجاز وضبة بشمال نجد
وبالعراق وتيمم بشرق نجد وشمالها ومن تيمم العنبر وحنظلة ومن حنظلة يربوع ومن
يربوع العنبر الثانية. بقي مدركة ومنه هذيل بالطائف وخزيمة ومنها الهون بين مكة
والمدينة ومن الهون عضد والديش المعروفان بالقارة وكانوا رماة ومن خزيمة أيضا
أسد وفيها كاهل ودودان وكانوا بأجأ وسلمى الى أن أجلتهم عنها الى الشرق طيء كما
سبق ثم كنانة بمكة وتهامة الحجاز ومنها عامر وعمرو وملكان ومالك وعبد مناة
والنضر ومن مالك فراس ومن عبد مناة غنمار وبكر وليث والحارث ومدلج وضمرة أما
النضر وهو قریش فابنه مالك وابن مالك فهو أبناء فخر غالب والحارث ومحارب وابنا

غالب لؤى والادرم وأبناء لؤى كعب وسعد وخزيمة وعامر وأبناء كعب مرة وعدي
وأبناء مرة كلاب وتيم ويقظة وأبناء كلاب قصي وزهرة وأبناء قصي عبد مناف
وعبد الدار وعبد العزي وأبناء عبد مناف هاشم عبد شمس ونوفل والمطلب وأبناء هاشم
عبد المطلب ونضلة وأسد وصيفي وأبو صيفي وأبناء عبد المطلب عبد الله والدرسول
خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم والعباس والدا خلفاء العباسيين وأبو طالب والد أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب وحمزة وانقرض عقبه وأبو لهب والحارث أعقبا ولم
يعرف عقبهما ثم الزبير وعبد الكعبة وضرار وحجل وقثم والغيداق ولم يعقبوا

ثالثا - أيامها الكبرى ذوات الإثر في الأدب

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم تتوافر لدي أمة ما أسباب التناحر والتقاتل والتناز
والتطاحن بقدر ما توافرت لدى أمة العرب في جاهليتها وبخاصة الشعوب العدنانية
منها فقد انتشر وفي أنحاء الجزيرة العربية يطلبون لما شيتهم كلاً لها وينتجعون لارتياح
مواقع الغيث أنحاءها فإذا ما محل بقبيلة موطن طلبوا آخر يتزعونه من غيرهم انزعوا
بأسنة الرماح وظلمات السيوف وما أسرع ما يهرعون إلى الغارة على عدوهم يلهونها
والى ظهور خيولهم يعتلونهم فيكون الطعن والنزال والضرب والقتال ويكفي أن تكون
غارة بين قبيلتين أساساً تقوم له الحرب على قدم وساق فتبقى آمداً أو آجلاً يشب أو ارها بين
أو نة أو أخرى طلباً للثأرات أو انتقاماً بما ل يغضب وقد يستجير المطالب بقبيل يائي إلا
أن ينصره قياماً بحق الجوار ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه فيغزى لذلك ويقاتل
وتكون هناك حرب أخرى وغالباً ينضم فيها حليف لحليف على أنه لم تحل الجزيرة
العربية من حروب حفز إليها الدفاع عن ملك أو الانتصار لمتبوع أو التعصب على
عمومه أو في خصوصه ولا ننظر أن أيام العرب الكبرى إلى غير ذلك ترجع فطلب
العيش والاختبال للثأر وحماية الجار ومساعدة الحليف ثم ما قفينا به من الدفاع عن الملك

ونصرة المتبوع والتعصب كل أولئك كان من أجله تقوم الحروب
وإذ سبق هنا أن العدنانية كانت المسعر لهذه الحروب وتقدم في ذكر الانساب أن
كثيرتها كانت تزخر بتغلب وبكر في ربيعة وبهوازن وغطفان وجشم وسليم في قيس
وبتميم في طابخة ثم بكمناة وقريش في مدركة فانا سائقون لذلك أشهر حروب
هذه القبائل مسبوقة ببعض ما كان بين نزار واليمن وملتوة ببعض آخر هو
ما كان بين العرب والفرس مع ذكر بعض ما كان لليمن خلال ذلك لمناسبة

بين نزار واليمن

يوم الكلاب الثاني — بين مذحج وتميم وسببه أن تهما نزلت الكلاب وهو
ماء بين اليمن والبحرين طوله مسيرة يوم فعلمت مذحج فأغارت عليها فدارت الدائرة على
مذحج وكان رئيس تميم قيس بن عاصم ورئيس مذحج عبد يغوث وقد أسروا في أسره
هذا قال قصيدته المشهورة التي مطلعها :

ألا لا تلوماني كفي اللوم ما بيا فما لك في اللوم خير ولا ليا

قالها يلوم قومه على هزيمتهم ويعتذر لنفسه عن أسره ذا كرا ما كان له قبل من
بلاء ومعددا بعض مفاخره الماضية كما لبى تميم مفاخره بهذا اليوم الذي نادى فيه
قيس وقد ولت مذحج الادبار يا آل تميم لا تقتلوا الا فارسا فان الرجالة لكم
ثم جعل يرتجز ويقول :

لما تولوا عصبا هو اربا أقسمت لا أظعن الا راكبا

إني وجدت الطعن فيهم صائبا

يوم خزازي — ويقال له خزاز جبل يتوسط الطريق بين مكة والنصرة
وهو من أقدم الأيام بين نزار واليمن وكان رئيس نزار فيه على غلبة الظن كليبا
التغلبى أو هو قد أبلى فيه بلاء بينا وهزمت اليمن فيه هزيمة ذكراء

وبعده خرجت نزار عن سلطة اليمن ونقضت جباية تباع بهته بعد أن كان رسولهم يأتي
ومعه كاتب ووطنفسة يجلس عليها فيأخذ من أموال نزار ما يشاء وليس بمعروف
عن هذا اليوم شعري عاصره ولا كنهه ذكر على ألسنة الشعراء بعد كعمرو بن
كلثوم التغلبي حيث يقول :

ونحن غداة أوقد في خزازي رفدنا فوق رفد الرافدين
فـكننا الايمنين اذا التقينا وكان الايسرين بنو أيمننا
فصالو صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالانهاب وبالنسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

حروب ربيعة

أهمها البسوس بين تغلب وبكر ابني وائل وذلك أن تغلب أخذت بعد
خزازي مكانا عليها في العرب وملك كليتها فعظم شأنه وعلا علوا كبيرا وبلغ من
كبريائه أن صار يحمي مواقع الغيث والوحش فيقول كلاً كذا في حماي
ووحش كذا في جوارى وحدث أن كانت البسوس بنت منقذ خالة جساس
ابن مرة عند ابن أختها هذا وكانت لها ناقة رأت أبل كليب ترد فوردت
معها فرماها كليب بسهم خرم ضرعها فولت وهو يشخب لبنا فلما رأتها البسوس
قذفت خمارها عن رأسها وذهبت الى جساس صائحة واذل جراه فأحسبه ذلك
على ما كان من ظلم كليب وحسد بكر لتغلب فذهب الى كليب مسرعا فطعنه
فقصم صلبه وكان معه عمرو بن الحارث الشيباني فطعنه فقطع بطنه فوقع
يفحص برجله وقيل في مضرب المثل (تجاوزت شبيهاً والاحص) وهما اءان
إن قاتله جساس إذ قال له كليب حين وقع أغثنى بشربة من ماء وفي تصدق ذلك
يقول عمرو بن الاهتم

وان كلييا كان يظلم قومه فادركه مثل الذى تريان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمه تذكر ظلم الاهل أى أوان
وقال لجساس أغثنى بشربة والا فيخير من رأيت مكاني
فقال تجاوزت الاحص وماءه ووطن شبيث وهو غير زؤان

فهاجت بمقتل كليب حرب البسوس التى مكثت طويلا من الدهر بين تغلب
وبكر ابني وائل وكان المهلهل أخو كليب المعروف بالزير لما كان عليه من اللهو
واستدامة التحدث الى النساء حامل لوائها على بكر وشيبان ومن والاهما لا يقنعه في
ذلك مقنع ولا يقف في القتال عند حد . يدل على ذلك أمثال قوله

أكثر قتيل بنى بكر برهم حتى بكيت وما يبكي لهم أحد
آليت بالله لا أرضى بقتلهم حتى أبهرج بكرا أينما وجدوا

وقوله

قتلوا كلييا ثم قالوا أربعوا كذبوا ورب الحل والاحرام
حتى تبيد قبائل وقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
وتقوم ربات الخدور خواسرا يمسحن عرض ذوائب الايتام

وقوله

يال بكر أنشروا لى كلييا يال بكر أين أين الفرار
ولما أسرف مهلهل فى الدماء وكانت لتغلب على بكر أيام كثيرة كالذائب
وعنيزة والخنو ثم واردات الذى قتل فيه بجير بن الحارث بن عباد أو ابن أخيه
وكان الحارث اعتزل تلك الحروب فلما بلغه قتل بجير هذا قال نعم القتل قتيلا
أصلح بين ابني وائل ووطن أن المهلهل أدرك به ثار كليب وجعله له كفؤا
ف قيل له إن مهلهلا قتل بجيرا قال له « بؤ بشسع نعل كليب » فغضب الحارث وتولى

م- ٤ أدب

أمر بكر ولم يزل يقتل تغلب حتى تفرقت وهرب المهمل وفي ذلك يقول الحارث
وكانت له فرس تدعى النعامه

قربا مربط النعامه منى إن بيع الكريم بالشسع غالى
قربا مربط النعامه منى لقحت حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم الله وإني بجرها اليوم صالى
قرباها فى مقربات عجال عابسات يشن مثل السعالى
لابجير أغنى قتيلا ولا رهـ طكيب تراجروا عن ضلال
يابجير الخيرات لا صلح حتى نملأ البيد من رعوس الرجال

وكان اليوم الذى انتهى بشفق تغلب وهرب مهمل يوم قضية وهو يوم
تحلاق اللمم وبه تفخر بكر. ولما هرب مهمل انتهى الى جنب وهم بطن من
مذحج وكانت معه ابنته فيخطبونها فتمنع فاجبروه وأمهروها جلودا وفي ذلك
يقول متحسرا على عزفات

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الاكرمين من جشم
أنكحها فقدھا الاراقم فى جنب وكان الحباء من آدم
لو بأبانين جاء يخطبها زمل ما أنف خاطب بدم
ولمهمل فى رثاء كليب وبكائه القصائد الطويله
منها التى مطلعها

أليلتنا بذى حسم أنيرى اذا أنت انقضيت فلا تحورى
والتي مطلعها

بت ليلي بالانعمين طويلا أرقب النجم ساهرا أن يزولا
والتي يقول فيها

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها اذا أنت خليتها فيمن يخليها

ومما يذكّر من شعر العاطفة المتحيرة هنا شعر جلييلة أخت حساس وامرأة
كليب اذ قالت لها أخت كليب يا هذه اخرجي عن مأتمنا فانث أخت واربنا
وشقيقة قاتلنا وشيعتها بقولها حين خرجت «رحلة المعتدى وفراق الشاهت» فقالت
جلييلة وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها أفلا تقولين «نقرة الحياء
وخوف الاعتداء» ثم أنشأت تقول

يا بنة الاقوام ان شئت فلا	تعجلي باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذي	يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرىء ليمت على	شفق منها عليه فافعلى
جل عندى فعل حساس فيا	حسرتى عما انجلى أو ينجلى
فعل حساس على وجدى به	قاصم ظهري وهدن أجلى
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتى الاول
يانسائى دونكن اليوم قد	خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى	من ورائى ولظى من أسفلى
ليس من يبكى ليوميه كن	إنما يبكى ليوم مقبل
يشتهى المدرك بالثأر وفى	دركى ثارى ثكل المثل
اننى قاتلة مقتولة	ولعل الله أن يرتاح لى

بين ربيعة وغيرها

من أعرف الحروب بين ربيعة وغيرها ما كان بينها وبين تميم وذلك أن
بكرًا اعتادت أن تنتجع أرض تميم ترعى بها فاذا ما أرادت الرجوع لم تدع
عورة تصيبها ولا شيئًا تظفر به الا ا كتهسحته وكان ذلك منذ القديم فاجمعت

تميم رأيها على مدافعة بكر وبهذا كانت لا تنطفئ بينهما نار حرب ولهذا
كانت تميم تنضم الى تغلب على بكر في حرب البسوس ثم إن الغلبة اكثر الايام
كانت لتميم وان كانت الايام حافلة بالمفاخر اكمل الطرفان
فمن ايام بكر على تميم يوم الزورين وهما جملان أتت بهما تميم مقرونين
مقيدين وقالوا لا نولى حتى يولى هذان «والبعير اذا قيد فهو زور أو زوير ماء حوذ
من الزيار وهو ما يزر به البيطار الدابة» فاخبرت بكر رئيسها وهو عمرو بن
قيس بن مسعود الاصم بذلك فقال وأنا زوير كم إن خشوها فخشوني وإن
عقروها فاعقروني ثم التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا انهزمت فيه بنو تميم وقتل
منهم أبو الرئيس النهشلي وغيره كثير وأخذت بكر الزورين وفي ذلك يقول
الاغلب العجلي

جاءوا بزورهم وجئنا بالاصم شيخ لنا قد كان من عهد إرم
فكر بالسيف اذا الرمح انحطم كهمة الليث اذا ما الليث هم
كانت تميم معشرا ذوى كرم مخلصه من الغلاصم العصم
قد نفخوا لو ينفخون في فحم وصبروا لو صبروا على أمم
اذ ركبت ضبة أعجاز النعم فلم تدع ساق لها ولا قدم
ويقول رجل من بنى سدوس

ياسلم إن تسالى عنا فلا كشف عند اللقاء ولسنا بالمقاريف
نحن الذين هزمتنا يوم صبحنا جيش الزويرين في جمع الاحاليف
ظلوا وظلنا نكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالمرد الغطاريف

ومن ايام تميم على بكر يوم بلقاء الحسن «والحسن جبل» وفيه قتل سبطام بن قيس
سيد بنى شيبان قتله عاصم بن خليفة الضبى فقال ابن غنمة الضبى يرثيه وكان

مجاورا اذ ذاك في بني شيبان وخاف أن يقتلوه

لا تم الارض ويل ما أجنث بحيث أضر بالحسن السبيل
يقسم ماله فينا ويدعو أبا الصهباء إذ جنح الاصيل
فان تجزع عليه بنو أبيه فقد فجعوا وحل بهم جليل
بمطعام إذا الاشوال راحت الى الحجرات ليس لها فصيل
ومنها البيت المشهور يخاطبه فيه

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول
ومما يعد من حروب ربيعة وان كان الباعث فيه لا يعدو الدفاع عن ملك
ما كان بين شرحبيل ومسلمة ابني الحارث بن عمرو الكندي وكان قد ملك
على بكر بن وائل برضاهم من قبل أحد التباينة لما تقاطعت أرحامها وغلبتها
سفهاؤها فأحسن قيادها وغلب بها على كثير مما كان في أيدي ملوك الحيرة
اللخمين وملوك الشام الغسانيين فلما مات اختلف ابنه هذان على الملك فكانت
بكر مع شرحبيل أكبر الاخوين وانضمت تغلب نكاية في بكر الى مسلمة وكان
يوم الكلاب الاول وفيه قتل شرحبيل

بين اللخمين والغسانيين

وعلى ذكر الدفاع عن الملك وذكر اللخمين والغسانيين نقول إن من الحروب
العربية الكثيرة الوقائع الشديدة الايام ما كان بين هذين الجذمين من اليمن لان
ضلع الغساسنة كان مع الروم وضلع اللخمين كان للفرس فسلطت كلتا الدولتين
تبيعها على الآخر ومن أشهر ما كان بينهما من أيام بوم حليلة وما يوم
حليلة بسر ارتفع فيه من العجاج ما غطى عين الشمس حتى ظهرت الكواكب

وكان بين الحارث بن أبي شمر الغساني والمنذر بن ماء السماء اللخمي
وحليمة هذه ابنة الحارث ونسب اليوم اليها لانها أخرجت لابن بطال أبيها مكرنا به
طيب تطيبوا منه والمركن الاجانة

بين الاوس والخزرج

وقل أن توجد حرب داخل الجزيرة لليمن غير ماتقدم الا ما كان بين
الاوس والخزرج وهو قليل وأشهر أيامه يوم بغاث وهي مزرعة في ديار بني
قريظة من اليهود وكانت لهم رهائن عند الخزرج فغدر بها عمرو بن النعمان
البياضى رئيسهم فاعانوا عليه حضير الكتائب رئيس الاوس وفيه انهزمت الخزرج
واكن أصيب حضير يجراح مات متأثرا بها وفي ذلك يقول خفاف بن ندبة
وكان له صديقا يرثيه

أتاني حديث فكذبته وقيل خليلك في المرمس
فيا عين بكى حضير الندى حضير الكتائب والمجلس

حروب قيس

١ - بين عبس وذبيان

أهمها داحس والغبراء بين عبس وذبيان وكان سببها أن قيس بن
زهير العبسي وحمل بن بدر الفزاري « وفزارة من ذبيان » تراهنا على مائة بعير
يأخذها من يكون له السبق وكان داحس فحلا لزهير والغبراء حجير الحمل وكان
في طرف الغاية شعاب كثيرة فأكمن فيها حمل فتيانا وأمرهم أن يردوا وجه
داحس اذا جاء سابقا فلما برز داحس قال قيس « جرى المذكيات غلاء »

فذهبت مثلاً وا-كن لما شارف الغاية وثب الفتية في وجهه فردوه عنها فسبقت
الغبراء وامتنع قيس أن يدفع الرهان لما كان من عمل الفتية وكاد الناس يسكنون
لولا أن حذيفة أخوا حمل بعث ابنه مالكا الى قيس يشدد في طلب الرهان فقتله
قيس فاجتمع الناس واحتملوا ديتهم مائة عشرة و-اكن حدث أن علم حذيفة
بنزول مالك بن قيس بعيدا عن قومه فعدا عليه فقتله فقالت عبس مالك بمالك
وردوا علينا مالنا فابي حذيفة فقال الربيع بن زياد العبسي وكان الذي احتمل
الدية عن قيس ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكلمة لبئسا
فعلتم بقومكم قبلما الدية ورضيتم بها ثم غدرتم ردوا الدية فلم يسمعوا فنهض
بعبس وحلفائها الى فزارة وذيان ورؤسهما حذيفة وبدأت حرب داحس التي
مكثت طويلا حتى كاد ينقرض لها الطرفان وأيامها دامية كثيرة منها المريقب
لعبس على فزارة وفيه قتل عنزة الفوارس ضمضم المرى أبا حصين وهرم
الذين توعدا عنزة فقال فيهم من معلقته

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشامي عرضي ولم أشتمهما والناذرين اذا لم آلقهما دمي
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم
ومنها الهباءة لعبس على ذبيان وفيه قتل حمل بن بدرو أخوه حذيفة ومثل بهما
فعظم على غطفان قتلهم وكذا سائر قتلى الهباءة وتجمعت على عبس فعرفت
عبس أن ليس لها مقام بارض غطفان فيخرجوا الى اليمامة فنزلوا ببني حنيفة
ثم غادروهم الى بني سعد فعادروا بهم ولم تنزل الارض بعبس نايبة وذيان
ومن تحمس لنصرتهم من غطفان ينالون منهم حتى أصالح بينهما هرم بن سنان
والحارث بن عوف المريان وتحملا الديات والى ذلك يشير زهير وكان منقطعا

الى مدح هرم في معاقته حيث يقول

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرهم
يمينا لنعم السیدان وجدتما على كل حال من سحیل ومبرم
تدار کما عیسا وذیان بعدما تفانوا ودقوا بینهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرک السلام واسعا بهال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بهیدین فیها من عقوق ومأثم
عظیمین فی علیا معد هدیما ومن یستبیح کنزا من المجد یعظم

الى آخر ما أفاض فی هذا الموضع . وفي قتلی الهبأة كثير من المراثی والاشعار
لما أصابت من سادة وما وقع فیها من تشف وتمثیل

٢ - بین هوازن و غطفان

ومن حروب قیس أيضا . ما كان بین هوازن و غطفان وذلك أن هوازن
كانت تؤدى إتاوة الى زهير بن جذيمة العبسی فأتته عجوز من كلاب بسمن
فی نحی واعتذرت اليه وشكت سنین تتابعته فذاقه فلم یرض طعمه فدعس
المرأة بقوس فی يده فاستلقت على قفاها منكشفة فتألى خالد بن جعفر الكلابي
لیجعلن ذراعاه فی عنقه حتى یقتل أحدهما ثم استقل زهير عن قومه بابنيه ورقاء
والحارث فخرج خالد ومعه معاوية الاخیل جدلی الاخیلیة وأحس زهير
فركب فرسه القعساء ولكن معاوية وخالدا أدركاه فطعن معاوية القعساء
فقلبت زهیرا وخر خالد فوقه فرفع المغفر عن رأسه وضربه معاوية على مفرقه
ضربة بلغت الدماغ وانصرفا دون أن یغنی فیهما ضرب ابني زهير لکمال
عدتهما وفي ذلك يقول خالد

بل كيف تكفرتني هوازن بعدما أعتقتهم - فت - والدوا أحرارا
 وقتلت ربهم زهيرا بعد ما جدع الانوف وأكثرا الاوتارا
 وجعلت مهر بناتهم ودياتهم عقل الملوك هجائنا وبكارا

ثم حدث أن خالد بن جعفر هذا انتقص الحارث بن ظالم المري الذيباني
 وكان رئيس غطفان بعد زهير بقوله ألا تشكر يدي عندك أن قتلت عنك
 سيد قومك زهيرا وتركتك سيدهم فقال سأشكر وحقد عليه وقتله منصرفهما
 من لدن الاسود بن المنذر أخى النعمان وكان الانتقاص بمجلسه ثم هرب
 فكانت لذلك أيام بين هوازن وغطفان وكان للحارث في هربه هذا أخبار طويلة
 وأحاديث شتى ذات ضروب وألوان ثم كانت منيته على يد يزيد بن عمرو
 الغساني وكان جارا له فقتل في قومه وهو مستجير فعفا عنه ثم قتل ثانية فلم
 يتركه دون قصاص وقتله

ومما كان بين هوازن وغطفان غير هذه أيام تلت اغارة عبد الله بن الصمة
 الجشمي على غطفان يوم اللوى واستياقه سرحهم ثم لحاق غطفان به وهو
 مقيم ينتقع وقتلها إياه في وقعة جرح فيها أخوه دريد صاحب القصيدة التي
 منها البيت

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح الاضحى الغد
 والى يرثي فيها عبدالله ويذكر ما كان من خلفه له في الاقامة للانتقاع
 وكان من أشد الايام بعد ذلك يوم الصلعاء وفيه قتل دريد هذا

٣ — بين سليم وغطفان

ومن حروب قيس أيضا ما كان بين غطفان وسليم على أثر نزاع قام
 م ه أدب

بعكاز بين معاوية بن عمرو بن الشريد السلمي وهاشم بن حرملة الغطفاني
تهياً معاوية بعده وغزا هاشما على كره من أخيه صخر فقتل هاشما وتتابعت
لذلك أيام لم يقفها الا إصابة صخر بطعنة اعتل بها طويلا ثم مات وليس
يجهل أحد ما كان للخنساء أختمها في هذا الباب من بكاء ورثاء.

بين قيس وعيرها

ولم تك الحروب في قيس قاصرة على بطونها بل كان بينها وبين غيرها
أيام أهمها : —

١ — بين عامر وتميم

فمنها ما كان بين عامر وتميم وسببه أن الحارث بن ظالم المري الذيباني
قاتل خالد بن جعفر الكلابي العامري على مامر أنفا التيجأ الى معبد بن زرارة
التميمي شطرا من أيام هربه فأجاره وعلمت بذلك عامر فغزت بني تميم يوم
رحرحان وفيه أسر معبد وأبت عامر فيه الادية الملوك وأبي أخوه لقيط دفعها
عملا بوصاة أبيهما زرارة حتى لا تذؤب بهم ذؤبان العرب ومات معبد في أسره
هزالا حبسه نفسه عن الطعام والشراب. ثم انضمت ذيبان لتميم وغزوا عامرا
وقد انضمت اليها عبس لما كان بين عبس وذيبان في داحس والغبراء فالتقى
الجمعان في شعب جبلة وهو من أعظم أيام العرب ولكن دارت الدائرة على تميم
أيضا فقتل لقيط ولحق تميما من ذلك الضعف الكبير

٢ — بين سليم وكنانة

ومنها ما كان بين سليم وكنانة وسببه أن ربيعة بن مكدم من بني فراس بن

غنم وهو فارس الظعينة قتل ثلاثة فوارس من قيس أرادوا استلابها منه بوادي
الاحرم وهو الكنانة وكانوا مغيرين عليه مع دريد بن الصمة فاغارت سليم
بعدئذ على كنانة يوم الكديد وفيه قتل ربيعة فتبع ذلك أيام من كنانة على
سليم كانت الغلبة فيها دولة بين الطرفين . وفيها وفي يوم الظعينة كثير من
رائق الشعر وجليل الرثاء والفخر

٣ - بين هوازن وكنانة

ومنها ما كان بين هوازن وكنانة وأشهرها الفجار الرابع . وسببه أن
البراض بن قيس الكنانى وعروة الرحال رجل هوازن كانا عند النعمان وقد
جهز غير اللطيمة وهى إبل تحمل تجارة لكسرى الى أسواق العرب من البز
والطيب فقال من يجيرها فقال البراض أنا أجيرها على بنى كنانة فقال النعمان
ما أريد الا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهامة فقال عروة أكلب خليع يجيرها
لك أبيت اللعن أنا أجيرها فقال البراض أعلى بنى كنانة ياعروة قال وعلى
الناس كلهم فدفعها النعمان الى عروة وحنق عليه البراض فتبعه وهو لا يخشى منه
شيئا فقتله واستاق اللطيمة الى خير فقامت لذلك حرب بين هوازن وكنانة
تصيب هو لها الولدان وجعلت تتجدد كل عام فى ميعادها من الاشهر الحرم
حتى كانت خمسة أيام فى أربع سنين تداعى الناس بعدها الى السلم بدافع من
أنفسهم كأن العرب كانت تستعد لحدث جديد هو حلول الوفاق محل الخلاف
قبيل مجيء الاسلام الذى ألف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمته اخوانا .

أيام ذى قار بين العرب والفرس

وذو قار ماء قريب من البصرة وكان سببها أن كسرى غدر بالنعمان بن

المنذر وقتله في المدائن وكان النعمان قد أودع سلاحه هانيء بن قبيصة بن هانيء
ابن مسعود الشيباني وجعل عنده ابنته هنداء وهي حرقاء فطلب كسرى السلاح
أبي هانيء فكانت الحرب وفيها تضامت العرب وانتصرت نصرا مبينا قال
كان قد بعث « اليوم أول يوم انتصفت فيه
العرب من العجم وبني نصرنا ». ولايام ذي قار في نفس كل عربي مقام يعتز
به ولذلك أكرمت العرب جميعا من التفاخر بها والتباهي بذكرها وفيها كانت
خطبة هانيء المذكور يحرض قومه بكرا على القتال ومنها

يا معشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور ان الحذر لا ينجي من القدر
وان الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره
الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور ياكل بكر قاتلوا فما
للمنايا من بد

رابعاً - اثر تلك الايام في الادب

تقدمنا آنفا بطائفة من أيام العرب ذكرنا بواعثها ووضحنا أسبابها لتكون
تمهيدا لما نعالجه الآن من أثر تلك الايام في الادب . واذ كانت تلك البواعث
وهذه الاسباب متصلة بعيشهم وان شئت فقل هي نفس عيشهم^(١) وكان الشعر
ديوانهم الذي اليه يحتكمون وبه يفتخرون فقد قاض عليه من الايام ما لولاه
لغاض معينه وصوح نبته فلم نره كما نراه الآن تلك الروضة المعطار ذات
الغصون الناضرة والاطيار الشادية

(٢) حبت الحرب الى نفوس العرب وهي طبيعة فيها صفة الشجاعة والنجدة
والبأس والقوة بقدر ما بغضت اليهم الخور والضعف والجبن والهلac فكانوا في
حضرهم عليها واصطلاهم نارها وانتشائم بلذو الظفر فيها يقولون الشعر شعر

الحماسة والفخر فيصدر منهم جنل الالفاظ شريف المعاني نبيل المقاصد يحرك
من القلوب الضعيفة ويهون الموت على الاعزة الاحياء ثم ينشون الى بكاء قتلاهم
وتعداد بلائهم تخليدا لما آثرهم وذكرهم فاذا شعر الوجدان الباكي والعاطفة
الاليمة ممزوجة بما يخفف على الحى رزء المفقود ويجعله يأنف أن يموت حتف
أنفه ويعد من النقيصة والعار ألا تكون منيته بطعنات الرماح وضربات السيوف
وأى أمر غير هذا جعل أباتمام الطائي يسمى ما اختاره من شعرهم ديوان
الحماسة ويجعل أكثر من نصفه خالصا لها ولما كان حتما مقضيا بعدها من الموت
فالتأبين فالرثاء .

تأمل عيون الشعر الجاهلى فحيث ترى العين قذافة لا ينقطع ماؤها لا تنفى
ترمى بكل مقطعة منه متماسكة الالفاظ متعاشقة المعانى تجدها من هذين البابين
وهل لغيرهما ومنشؤهما ذكر الفجيرة فى الميت واستخلاص الحياة للحى من
الاتصال بقرارة النفوس وتحريك ما كمن فيها مثل ما لها اللهم لا . ثم يتصل
بهذين البابين عن قرب التفاجر باجارة الجار واغاثة الملهوف ونصرة المظلوم
وعن بعد التمدح بقري الاضياف وايواء الطارقين وما لنا نبعث بالقرى والايواء
عن مواطن الشجاعة والاقدام وهما راجعان الى الكرم والكرم والشجاعة
صنوان ومن أصل واحد ينبتان هو السباحة وما تقتضيه من بذل يقع فى المال
فيكون سخاء وكرما ويرتفع الى أقصى غاية الجود تضحية بالنفس فيكون
شجاعة واقداما . أفلا نحس اذن أن الشعر العربى اذا تجرد مما أثر فى هذه
الناحية الواسعة الاطراف يصبح قاعا صفصفا أو يعدم أقل ما يصاب جواهر
تاجه ووسائل عقوده فيذهب ماؤه ويضيع بهأوه

ثم كان من عادة العرب فى الحروب أن يسيهروا ليلا ليدهموا بالغارة صباحا
فكان من هذا سرى الليل وتعريسه وهول ذلك وخوفه وما اتصل بالسرى

من ذكر الليل نفسه في دجنته وظلماته أوفى سمائه بما يستطيع فيها من بدر أو يهدى
من نجم وهذا منحى آخر من القول بين التأثير في اللغة والتأثر بالايام
وحق إذا هدت الحرب ووضعت أوزارها كانت تفيض على اللغة بالمتع
الكثير منها ففى الدعوة الى السلم ونفعها والتكبد عن الحرب وضررها من
الخطب والوصايا والحكم والمواعظ وضرب الامثال والشواهد ما استنفد جملها
وأخذ كثرها ولو تتبعنا هذه الناحية نحصيلها مع ما اتصل بها من صالح ووثام
ومغارم ومحامل وديات يفرق فيها بين عربي صريح وآخر مقرف أو هجين
لوجدنا الشطر الاكبر في النثر الجاهلى الى هذا ينسب كما نسب نظيره في الشعر
الى الحماسة والرياء وما تعلق بهما أو انشعب منهما

(٣) وان لنا أن نعتبر عناية العرب بأنسابها وحفظها لمفاخرها وأحسابها الى ذلك
الحد الذى لم تعرفه أمة غيرها راجعة الى واعها بالحرب أيضا حتى اذا مادت
داهمة كان كل اعرف بقبيله وعشيرته وناصره ومولاه واذا ما طلب ثأر كان
معروف المحل ومن هو منه قريب أو بعيد فاذا ما حانت المفاخرة والمنافرة
كانت الاصول التى تقع عليها معروفة غير مجهولة لا تطاوع عربيا أن يدعى
غير أبوته أو ينتسب الى غير قومه ولذا كان الادعاء نورة في العرب محل
ضعة منهم وتهجين

(٤) ثم ما نظن عناية العرب بالخيال تلك العناية البالغة مبالغها الدقيقة فى
تناولها الا منسوبة الفضل الى الايام: فما تستتب شجاعة الشجعان فترى منهم
البلاء والغناء الا بالخيال عليها يكرون وبها يقتحمون وهل أدل على شدة التلازم
بين الشجاعة والخيال من تسمية الرجل على الفرس فارسا فاذا ما كان على
بغل او حمار قيل بغال وحمار وألا يكون أخذ الفرس من الفرس وهو الهصر
والكسر والخيال من الخيلاء وهى الدل والعجب آية أخرى على هذا التلازم

واذن فما تبع تلك العناية من الاكثار الكثير في أسماء الخيل ونتائجها وعتقها وصفاتها مما ألفت فيه كتب ولم يسعه كتاب ثم ما كان من تفضيل العربي لجواده على نفسه في الزاد وجعله وإياه جزءا لا ينفصل منه في التفاخر بالاستبسال إن هو الا من الحرب نشأ ولا أجل القتال كان .

أوليس على أيام العرب وحروبها قامت صناعة السيوف والرماح وسائر عدد الحرب والقتال من مغافز ودروع ولجم وسروج وهذا ضرب آخر أفاض على اللغة الغنى والثراء مفردات وتراكيب وأخيلة وأوصاف . فالسيوف في صقاله ولمعانه وحدته ومضائه والرمح في اعتداله واستوائه وصلابته وملدانه ثم غيرهما مما تقدم فيما لهما من صفات وأحوال وليس ذلك بالخفى المجهول قد فتح في اللغة فتحة مبينا ونماها نموا كبيرا .

على أن العرب لم تقف عند الخيل ووصفها والآلات ونعتها بل تلتفت الى ما حولها من حيوان غير أليف فاذا بالاسد قد امتلك عليها لبها وشغل منها قلبها وفؤادها فلم كان الشاغل دون غيره ألا إن ذلك لما جبل عليه العربي من الولوج بالقتال وتمجيد الجرأة على المقارعة والنزال فأخذ يعنى بهذا الحيوان يبحث عن أحواله ويتشبه به في صفاته وأفعاله حتى أحله من نفسه محلا رفيعا وجعله على سائر الوحش سلطانا ومليكا وليس بخاف على أحد ماورد باللغة عن هذا الحيوان من أسماء ونعوت وما قذفت به ألسن الحمية والنجدة عنه من آيات اكبار واجلال . ثم لم يعدم غيره من الحيوان الضارى أن يتال من ذلك بقدر ضراوته كالنمورة والفهود والضباع والذئاب وان كان فيما اختص به الاسد دونها من نبيل وكرم وعلو وترفع فوق ما تقدم عنه من قوة وجرأة ما جعله المقصود لدى العرب بالتجلة والاعظام والمتشبه به في كثير من الصفات والخلال وصر فهم عن غيره الى القول فيه اكثر ما يقولون

وهل أقدمت العرب على تسمية قبائلها وبطونها وأولادها وفتيانها
بالكبريه من أسماء الحيوان كأسد وفهد ونمر وذئب ثم من غير الحيوان
كحجر وصخر وجشم وعبس الا محبة لتلك الاسماء وتفاؤلا لبنينهم أن يكونوا
من صفات ذواتها على كمال فيحموا الحوزة ويدافعوا عن العشيرة ويكونوا
للحروب أهلا ولمقارعة الابطال كفاء .

وهل اذ انطوى بساط الجاهلية بما كان عليه من شجار وعراك واشتباك
وقتل بما قد نشر الاسلام من لواء سلامه ومد من ظل عدله ووئامه انقطع
مدد الايام للادب أو وقفت حركتها الدافعة له كلا فقد مكثت أيام الجاهلية
الاولى مددا للشعراء غير مقطوع ومفاخر يبتعثون ثرائها غير خلق ولا
مجدوع نقرأ ذلك مستجيدين ولا آثاره حامدين مستكثرين من لدن صدر
الاسلام في مفاخر الفرزدق وجريير الى حيث قطع العصر العباسي عهد شبابه
وصباه على أيام البحتری وأبي تمام .

واذن فهذه كلمة انتظمت أثر الايام في الادب وما كان لها عليه من
فضل ونماء وهي على ما ترى تتناول الشعر والنثر كليهما أمثلة لها وشواهد
عليها الا ما قل منهما ومن ثم يسوغ لنا أن نقول غير مباغين ولا متجنين إن
أيام العرب وأدب العرب يكادان يكونان شيئا واحدا لا شيئين ولذا كان
الحض على تعرف أيامهم في القديم بمثابة الوصاة على تعلم آدابهم لالبس في
ذلك ولا كبير افتراق .

اللغة

نشأة اللغات وتعدددها — اللغات السامية وأصل العربية
طرق نمو العربية وخصائصها — اختلاف لهجاتها
وعوامل تهذيبها

أولا — نشأة اللغات وتعدددها

احتاج الانسان إلى التفاهم وكان التفاهم بالالفاظ ليسرها وعمومها أفيد
أنواع الدلالات فاستعملها فنشأت اللغات ولكن في كيفية هذه النشأة خلافا
طويلا دب بين العلماء الأقدمين ولا زال جاريا منهم إلى المحدثين
فعباد بن سليمان الصيمري يقول إن دلالة الألفاظ على معانيها ذاتية
لا توقيف فيها ولا تواضع مستدلا على ذلك بوجود مناسبة بين كثير من الالفاظ
ومعانيها وبأنه لولا هذه العلاقة الذاتية لكان اختيار لفظ دون آخر ترجيحا
بلا مرجح . وهذا القول مردود في جملته وتفصيله وإلا لزم أن يفهم الانسان
اللغة بل اللغات جميعا دون تعليم وهذا مالا يكون . أما تلك المناسبة فمع ثبوتها
لبعض الألفاظ وخصوصا الصوتي منها لا تنهض دليلا لانعدامها في الأعم
الأغلب ويكفي أن يكون مجرد خطور اللفظ دون غيره على الذهن مرجحا
له ودافعا إلى اختياره على أن تلك المناسبة لو كانت الأساس لما كان في لغة
من اللغات لفظ يستعمل في المعنى وضده كما هو مشاهد وكثير .

وأبو الحسن الأشعري يقول انها توقيفية أتت بوحي من الله سبحانه وتعالى

وتبعه في ذلك أبو علي الفارسي محتجا بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها »
ولكن الآية ليست بالدليل القاطع في الموضوع إذ يجوز أن يكون المراد
بالأسماء أسماء الملائكة أو بالتعليم الاقدار على المواضعة لا التعليم المباشر.
والذي عليه الجمهور وبه قال ابن جني في خصائصه هو أن اللغة تواضع
واصطلاح وجدت المناسبة أم لم توجد تحقق القصد في التواضع أم جاء عفوا
بالارتجال . وأن الإلهام من الله سبحانه وتعالى بمعنى الأقدار ثابت في الحالين
وبيان ذلك أن الحيوان يعبر عن وجدانه بأصوات تختلف باختلاف مطالبه كما
نراه ولما كان الإنسان لا بد أن يفضل في ذلك لما فيه من قوة الإدراك ومطاوعة
الصوت فقد استغل مطاوعة الصوت في تنويع الحروف وقوة الإدراك في
ارتجال بعض الالفاظ فكان بهاتين القوتين عندما يريد أن يفهم أو يستفهم
يصيح لغيره بصوت محكي أو مرتجل يتوسم فيه الإفصاح عما يريد مضيفا اليه
ما يزيده إيضاحا من إشارة حسية أو قرينة حالية فاذا ما فهم غرضه منه كرهه
وكرره حتى يستقل بأداء معناه دون حاجة إلى إشارة أو قرينة وعلى هذا
النحو منه ومن غيره تكونت النواة الأولى للتفاهم الضروري ثم أخذت تتسع
وتنمو بما يتفقون عليه من غير تعمل ولا قصد حتى كانت لغة الإنسان الأولى.
وبقياس نشأة هذا الإنسان على ما هو مشاهد في نشأة الطفل وما هو معروف
عن لغات الشعوب الهمجية التي لا تزال في حدود الطفولة يمكن القول بأن
نطقه كان أولا بالأصوات الدالة على الانفعالات النفسية أو على محاكاة الطبيعة
ثم بالالفاظ المسمي بها بعض المحسوسات حوله وتلا ذلك النطق بالمصادر ثم
الافعال وأسبقها المضارع وهكذا انتقل التدرج إلى أسماء الإشارة والضمائر
والموصولات ثم المشتقات وبعد ذلك كله جاءت الحروف .

تلك هي نشأة اللغة أما كيف تعددت إلى لغات فمنشأ ذلك حتما هجرة طوائف الانسان وابتعاد بعضها عن بعض حيث رأت كل طائفة في بيئتها ما لم يره غيرها فاضطرت إلى وضع كلمات لم يضطر اليها سواها . ثم ان عدم اتفاق الخواطر على فرض تماثل البيئة في بعض الاحيان جعل الخلاف واقعا لا محالة في التعبير ولو إلى درجة غير بعيدة . فالى البيئة والخواطر معا يرجع تعدد اللغات ومن هنا كانت تتقارب اللغتان وتتباعدان قربا وبعدا كما كانتا قد تختلفان عن قرب أو تتشابهان على بعد ويغلب أن يكون ذلك قد حدث قبل نوح عليه السلام ولكن حادثة الطوفان غفت على ما سبقها وجعلت الناس لا يعرفون تعدد اللغات إلا بعدها فنسبوا أصولها إلى أبنائه الثلاثة حام ويافث وسام كما فعلوا في ارجاع أنساب الانسان فارضين أن لغة نوح ومن كان معه في السفينة كانت واحدة ولكن بنيه لما انتشروا في الارض بعد ذلك اختلفت لغتهم لما تقدم في أسباب نشأة اللغات ونسل من كل منهم شعوب وقبائل ذات لغات متعددة ولاكنها ترجع في اصلها إلى أبيهم وإذن فأصول اللغات ثلاثة

١ — اللغة الحامية نسبة إلى حام ومنها معظم لغات أفريقية كالحبشية والمصرية القديمة

٢ — اليافثية نسبة إلى يافث وتعرف بالآرية نسبة إلى آر بن يافث وهي لغة أوربة وكثير من شعوب آسية في غير الغرب

٣ — السامية نسبة إلى سام وهي لغة غرب آسيا مهد النبوة والرسالة وبها نزلت الكتب المقدسة فأثرت بهذا وبتوسط موطنها في كثير من فروع اللغتين السابقتين حتى إن بعضها قد عد منها كما سيأتى في الـكنعانية بعد . ولما كانت العربية « وهي لغتنا وموضوع بحثنا » أحد فروعها ناسب أن نذكر كلمة عنهما مع أصل العربية من باب التوطئة والتمهيد

ثانياً — اللغات السامية وأصل العربية

لقد وجد تشابه كبير في لغات الامم التي سكنت في القديم غرب آسية من العراق والشام وجزيرة العرب فانها فوق اشتمالها على حروف تكاد تكون خاصة بها كالحاء والصاد والطاء والعين وغيرها قد جاءت كثيرة الاشتراك أو شديدة التشابه في الالفاظ والمعاني وفي كثير من الخواص كمميزات التأنيث وكيفية اتصال الضمائر بجميع أنواع الكلمات . ولما كانت تلك الامم في غالبيتها من أبناء سام وكانت هذه اللغات قاصرة عليهم دون غيرهم الا من خالطوهم كالكنعانيين أبناء كنعان بن حام سكان لبنان ثم لم تعرف خارج تلك الجهات الا منقولة معهم فقد سميت هذه اللغات بالسامية وقسمت في أصولها إلى أروميتين عظيمتين .

الأولى : وهي أقلها شأنًا الكنعانية وكان أولى بها أن تكون من الحامية كما تقدم لولا أنها جاءت شديدة التشابه بالفروع السامية لطول ما أقام أهلها مع الساميين وأشهر فروعها (١) الفينيقية لغة أهل لبنان قديماً وقد بادت (٢) العبرية وقد دخلها كثير من فروع الارمية الآتية فصار يقال العبرية القديمة والعبرية الحديثة وقد بادت القديمة وبقيت الحديثة

الثانية وهي أعظمها الارمية الاولى نسبة الى إرم بن سام وأشهر فروعها (١) الآشورية لغة أهل نينوى وقد بادت (٢) البابلية لغة أهل بابل وقد تغيرت إلى الكلدانية ومن الكلدانية تفرعت السريانية والارمية الثانية ومكثتا إلى مجيء الاسلام ثم بادت الارمية قطعاً والسريانية إلا على ألسنة القليل (٣) العربية القديمة وهي لغة العرب البائدة ذات الاتصال القريب بأرم وقد عاصرت قدامى أخواتها وقبيل أن يبيد أهلها انتقلت إلى اليمن وعرفت بها على

أيام يعرب بن قحطان والكنها تأثرت باليمنية القديمة وتأثرت اليمنية بها
 فنشأت العربية الوسطى أو القحطانية التي تمثلت بعد في السبئية والحميرية وبقيت
 حتى غلبت عليها العربية الحديثة وهي العدنانية أو المضرية وان كانت تأثرت
 بالسبئية والحميرية جنوبا وبالعبرية والسريانية شمالا ثم استمرت في طريق
 النضوج والتهديب إلى أن قاربت فيه الذروة قبيل الاسلام فنزل بها القرآن
 الكريم فأتمه عليها ونشرها على لسان من آمن به في مشارق الارض ومغاربها.
 من ذلك يتبين أن اللغة العربية أصل من أصول الارمية القديمة التي هي
 منشأ اللغات السامية جميعا ما عدا الكنعانية أو بغير استثناء لما سبق من أن
 الكنعانية ليست أصلا فيها بل كثيرة الشبه بها ثم مع فضل اللغات السامية
 على غيرها كما يقول علماء اللغات بكثرة الكلمات وتنوع الاساليب واطراد
 القياس ووضوح مخارج الحروف وعدوبة المنطق قد فاقت العربية أخواتها
 جميعا في ذلك وفي غيره حتى رأى كثير من العلماء قديمين وحديثين شرقيين
 وغربيين أنها أصل اللغات السامية جميعا بما عقدوه من موازات بينها وبين
 السريانية والعبرية وهما أغنى الساميات بعدها إذ اتضح من هذه الموازات
 أن العربية أصل لها بدليل أن الكلمات المشتملة على حرف الضاد وهو خاص
 بالعربية دونهما تنقل اليهما بجعل الضاد صادًا في العبرية وعينا في السريانية
 باطراد ولو كانت العربية ناقلة عنهما لما كان ثمة داع لجعل هذين الحرفين
 ضادا لوجودهما فيها وبدليل فقدان كثير من أصول الكلم فيهما مع وجوده
 في العربية هذا الى ما هو ثابت للعربية من مميزات أوجدها التقدم الفطري في
 بقائها بجزيرتها قرونا طويلة بعيدة عن الاختلاط وأمنة شر المغيرين حتى
 اكتسبت بذلك مناعة جعلتها أقوى على مدافعة الغير وأبقى على مطاولة الزمن.

ثالثا — طرق نمو العربية وخصائصها

نشأت اللغة العربية على النظام الذي أسلفناه في نشأة اللغات فتكونت النواة الاولى من ألفاظها بعامل المحاكاة والارتجال ولا بأس من ذكر شيء عنهما الآن حيث يساق الكلام خالصا لطرق نموها وخصائصها

١ — المحاكاة

فألفاظ المحاكاة أنواع : منها ما حوكت به أصوات الحيوان كعواء الكلب ومواء الهر وخوار العجل مما أصله الحرف الاول محركا بحركة . وكرغاء الابل وأصله الحرفان الاولان وكنيب التيس وأصله الباء مكررة وكصير الجندب وأصله الحرفان الاولان مكررين

ومنها ما حوكت به أصوات الانسان القطرية كالشهيق والزفير والشخير والزحير مما أصله الحرف الثانى وكالتأوه وأصله الهمزة والهاء والتأفف وأصله الفاء مكرره والقهقهة وأصلها الفاء والهاء مكررتين

ومنها ما حوكت أصوات الطبيعة وتفاعلهما كخير الماء وحفيف الاشجار وهبوب الريح وكذلك الصك والهد والقط والمص والرش ونحو ذلك مما بين حروفه وصوته تشابه

وقد تلاحظ المحاكاة في وضع أسماء لبعض الذوات من صوتها كالانف والقم وأصلهما الفاء والحلق والحلقوم والخنجرة وأصلها الحاء

ومن هذه الاسماء الصوتية نشأت أفعال إما بالمد كخار العجل أو بالتكرير كخر الماء ونحوهما مما جعل التولد والازدياد عن طريق الصوت فعلا مستمرا .

ب — الارتجال

والألفاظ المرتجلة هي أكثر ألفاظ اللغة فقد خص الله الانسان بالنطق والفكر فاقتدر بهما على وضع ألفاظ كان ينطق بها كلما دعاه داعي التفهم أو التفهم ومن العسف أن ننكر عليه الارتجال كما فعل بعض المكابرين ونحن نرى الاطفال ولما يبلغ فيهم النطق والفكر مبلغهما في الكبار كثيرا ما يرتجلون كلمات مركبة من بعض حروف يدلون بها على مرادهم ويستعينون في تفهمها ببعض الاشارات وقد لا يستعينون ومع ذلك تفهم عنهم بالتكرير فمن الطبيعي والمعقول أن يكون الكبار أقدر منهم على الارتجال ولا سيما إذا ساعدتهم عليه استخدام عوامل النمو على ما سيأتي بيانه :

عوامل النمو

هي الابدال والقلب والنحت والاشتقاق والتجوز

الابدال

هو جعل حرف مكان آخر يقرب منه في اللفظ كأن يكونا من مخرج واحد أو مخرجين متقاربين وقد تناول كل الحروف تقريبا ولكن أشهر أنواعه ما يأتي : —

١ — تبادل الهمزة والهاء مثل أيهات في هيهات وهيا في أيا من قول

الراجز : —

فانصرفت وهي حصان مغضبه ورفعت من صوتها هياأبه

كل فتاة بأبيها معجبه

٢ — تبادل الهمزة والياء مثل ألملم في يللم ويللم في ألملى

٣ — تبادل الهمزة والواو عند الحجا-ازيين كوكد في أكد وإشاح

في وشاح

٤ — تبادل الهمزة والعين عند قيس مثل

أعن توسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم
والأصل أن ومثل

أرى جوادا مات هزلا لا ننى أرى ماترين أو يخيل مخلدا
والأصل لعلي وابدال الهمزة عينا هو عنعنة قيس

٥ - تبادل التاء والطاء كسلتان في سلطان من قول الشاعر
فتى زاده السلطان في المدح رغبة إذا غير السلطان كل خليل
وطرياق في ترياق

٦ - تبادل التاء والذال مثل سبتى في سبتى ومدى ومد فى مت بمعنى اتصل
٧ - تبادل الحاء والعين عند هذيل مثل ضبع فى ضبح وبحر فى بعثر
ويسمى الفحفة

٨ - تبادل الحاء والهاء مثل تفيحق فى تفيحق وكده فى كدح
٩ - تبادل الضاد والطاء كقول أعرابي لسيدنا عمر «أيطحى بضبي» يريد
أيضحي بضبي

١٠ - تبادل النون واللام مثل أصيلان فى أصيلا وهتل فى هتن
١١ - تبادل النون والميم مثل غين فى غيم وامتقع فى انتقع
١٢ - تبادل الميم والباء عند مازن كبكة فى مكة وامنى فى ابني
١٣ - ابدال التاء كافا مثل «يابن الزبير طالما عصيكا» يريد عصيت
١٤ - ابدال الضاد لاما مثل

لما رأى أن لادعة ولا شبع مال إلى أرطاة حقف فالطجع
يريد فاضطجع

١٥ - ابدال القاف كافا عند حمير مثل يارفيك فى يارفيق
١٦ - ابدال لام التعريف عندهم ميا مثل امسفر فى السفرو ويسمى الطمطمانية

١٧ - ابدال السين تاء عندهم مثل النات في الناس ويسمى الوتم

١٨ - ابدال الكاف شينا عندهم مثل منش في منك ويسمى الشنشنة

١٩ - ابدال العين الساكنة قبل الطاء نونا عند أسد مثل أنط في أعط

ويسمى الاستنطاء

٢٠ - ابدال الياء المشددة جيمًا في الوقف عند قضاة ويسمى العجعة مثل

خالى عويف وأبو عليج المطعمان اللحم بالعشج

يريد «على والعشى» وقد يحدث هذا الابدال من غير تشديد وفي غير الوقف

٢١ - ابدال كاف المؤنث شينا في الوقف عند تميم وتسمى الكشكشة مثل

قرى في بيتش أى في بيتك وقد يكون هذا الابدال في غير الوقف مثل بش

تقتدى النساء أى بك كما قد تضاف الشين الى الكاف من غير ابدال مثل قرى

في بيتكش

٢٢ - ابدال كاف المذكر سينا في الوقف عند بكر وتسمى الكسكة

مثل احمد ربس أى ربك وقد يكون هذا الابدال في غير الوقف مثل ربس

احمد أى ربك كما قد تضاف السين الى الكاف من غير ابدال مثل احمد ربكس

وباب الابدال واسع المدى كثير المثل ولذا كان من أكبر العوامل في

اختلاف اللهجات

القلب

هو تقديم حرف أو تأخيره في الكلمة بحيث تنشأ كلمة أخرى متحدة المعنى

مع الاولى أو مختلفته يسيرا كبعض وبضع وجذب وجبذ ويغلب أن يكون سببه

خطأ أتى من سبق اللسان أو محاكاة لمسموع مع سوء الاستماع ثم تكرر استعماله

فثبت

النحت

صوغ كلمة من بعض حروف كلمتين أو أكثر إيجازاً في النطق كبسمل
وحمدل وسبجل وحوقل وطلبق ودمعز وعبشمى وعبقسى وبعضهم يغالى فيقول
إنه قد يأتي في الكلمة فتتصفو على حرف واحد وأن من ذلك حروف المضارعة
فالهمزة من أنا والنون من نحن والتاء من أنت والياء من هي .

الاشتقاق

أخذ كلمة من أخرى مع تقارب في المعنى واختلاف في اللفظ وهو باب
واسع النطاق كثير التقاسيم وقد تكفل به علم الصرف
التجوز

استعمال اللفظ أو التركيب في غير ما وضع له لعلاقة هي المشابهة أو غيرها
وبقرينة مانعة أو غير مانعة وهو باب حافل وضع من أجله علم البيان
الترادف

وهذا عامل سادس هو الترادف ويكون بأن يوضع للمعنى الواحد أكثر من
لفظ وهو شائع في العربية وقد تصل كثرته إلى مئات الالفاظ ومنشؤه
اختلاف الخواطر في وضع الاسماء أو في التعبير عن المعاني على أن بعض علماء
اللغة يقول انه لا بد أن كانت هناك فروق دقيقة بين المترادفات تنوسيت على
تطاول الزمن ولكن في هذا القول بعض مغالاة ولعل القصد في التعليل أن يقال
إن الترادف لم يظهر إلا حين اشتد الاختلاط وعرف كل قبيل ما كان يستعمله
الآخرون فتبادلوا يوم هذا الاستعمال

الخصائص

تلك هي طرق نمو اللغة وزاداتها أما خصائصها فمع صعوبة إثبات شيء من الخصائص
للغة ما على إطلاق اللفظ يمكن أن نسند إلى العربية من الميزات ما إذا لم يكن

خاصة من خواصها لا يعدم أن يكون فيها أفضل منه في غيرها وأهمه
١ — الاعراب ولا يكاد يشارك العربية فيه من اللغات الا القليل كالحبشية
على ضعف وقلة تصريف بينا هو في العربية كثير التنويع والتفريع وبه يكون
التمييز بين المعاني والوقوف على مرامي المتكلمين فوجوده في العربية دليل على
قدم أهلها في البيان وألمعيتهم في تفهم الاغراض فان اختلاف حركة فيه قد
يقلب المعنى ويغير من نوع الكلمة

روي أن رجلا من الخوارج قال وخليفتمهم إذ ذاك شبيب
فمنا يزيد والبطين وقعب ومننا أمير المؤمنين شبيب
بضم الراء فامر عبد الملك بطلبه ولما وقف بين يديه قال له أنت القائل وروي
البيت كما ذكر فقال لم أقل هكذا إنما قلت « ومننا أمير المؤمنين شبيب » وفتح
الراء فضحك عبد الملك وخلي سبيله لتخلصه بفطنته
وروي أيضا أن الوليد بن عبد الملك وكان لحانة قال لأحد أشراف قريش
من ختنك بفتح النون وهو يريد الضم فقال فلان اليهودي فقال له ما تقول ويحك
قال لعلك تسأل عن ختنى يا أمير المؤمنين هو فلان

٢ — عدم الابتداء بالساكن وعدم جواز التقاء الساكنين الا بضوابط
تجعل على قلبه غير ثقیل وهذا خاص بالعربية وقد يجتمع في غيرها من اللغات
الاخرى أكثر من ساكنين

٣ — الدقة في استعمال الالفاظ وتتضح في العربية في أمرين أحدهما
تفصيل الالفاظ بقدر تفصيل المعاني حتى ليكاد يوجد لكل جزئية من المعنى
الواحد كلمة خاصة بها وهذا كثير فصلته مخصصات الالفة في أجزاء الانسان
والحيوان والطير والنبات والجماد والزمان وغيرها مما هو موطن التسمية ثم في
تفرع الافعال للشئ الواحد فالقتل مثلا للمعني الكلى وتحت من الالفاظ ما يبين

كافة أنواعه . والثاني عدم العدول عن اللفظ المناسب للمعنى ما وجدت تلك المناسبة فان ملاحظة المناسبة ان هي الا من تلك الدقة وهذا مستفيض في اللغة قد تناول الالفاظ الموضوعات بالمحاكاة كلها وأتى على كثير من المرتجلة عن طرق النمو السابقة وما نطن لكثير من اللغات مثل هذا

٤ - الدقة في استعمال التراكيب ومن أجل هذه الدقة الكلامية وعليها قامت علوم البلاغة الثلاثة بفصولها الصافية وأبحاثها الوافية التي يبعد أن تضارع بمثلها في غير العربية

٥ - الإيجاز وليست هناك أمة تبارى العرب فيه فقد بلغ من إيجازها أن كان الكلام على غنائه في المعنى يقع في الجملة والجملة. وما الامثال والحكم وجوامع الكلم الا آيات شاهدة على هذا ثم لعل في اكثار العرب من استعمال الایماء والاشارة والتعريض والكناية واللحن الصارف الى غير المتبادر أحيانا ما يرينا مبلغ مقدرتها على الإيجاز ومهارتها فيه

٦ - خضوع عوامل النمو السابقة في جملتها لكثير من الاقيسة والضوابط مما لا يوجد بعضه في غيرها ألبته أو يوجد بقدر ضيق يجعل الشاذ أكثر من المقيس.

٧ - هذا وبالربية خاصة قيل إنها لا تعتبر من آيات الكمال والمدح بل من بقايا النقص والعيب وهي الاشتراك ويكون بأن يطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى وبخاصة اذا كان في بعض دعائيه التضاد مما يؤدي الى التعمية والابهام إذ هذا يتنافى مع الغرض المفروض في اللغة من أنها وسيلة الى الايضاح والبيان ويغلب أن تكون الالفاظ المشتركة من بقايا اللغة التي لم يأت عليها الزمن بعوامل الاختصاص ولكن مما يهون الامر فيها بالربية وجود كثير من الكلمات المختصة ازاء اللفظ المشترك فان في ذلك غناء للقائلين وفرارا مما فيه تلبس على السامعين هذا الى ما قد يفيض به المقام اذا استعمل اللفظ المشترك من قرائن تتطلب المعنى المراد دون لبس ولا ابهام على ان الابهام قد يقصد في بعض الاحيان.

رابعاً - اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها

عرف مما سبق بيانه في اللغات السامية وأصل العربية أن العربية اجتازت ثلاثة أطوار طور أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب الشعوب العربية إلى سام لانهم إلى ابنه إرم ينسبون وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الأول باليمنيين القدماء اختلاطاً جعل لغة كل فريق تؤثر في لغة الفريق الآخر ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة فصارت أوضح منها في العربية الثانية لما هو متفق عليه من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان ومن ثم عرفوا بالعرب المتعربة ثم كان ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم أما الطور الثالث فهو ما كان من نشوء شعب عربي جديد حيث نزل إبراهيم وادي مكة على مقربة من جرهم الثانية وهي قحطانية فرفع قواعد البيت ثم عاد تاركاً هناك ابنه اسماعيل الذي أصهر في تلك القبيلة فكان له بنون نشئوا يتكلمون لغة جديدة تأثروا فيها بلغة أبيهم وبلغة هؤلاء القحطانيين حتى إذا ما انحدر التناسل إلى عدنان تم ظهور شعب ثان هو الشعب العدناني الذي عرف باسم العرب المستعربة وبذلك كانت هناك ائتمان قحطانية في الجنوب وعدنانية في الشمال ولكن مهما قلنا في التفرقة بين اللغتين فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منهما تامة الاستقلال عن الأخرى لأن تكوين الأخيرة يأبى هذا الاستقلال كما يأبى إلا أن تكون الأولى أغلب عليها عملاً بتغلب الكثير على القليل وكذلك مهما قلنا في التقارب بينهما فلن يبلغ التقارب درجة الاتحاد وبخاصة إذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا بعيدين في الجنوب عن الاختلاط بالعدنانية في الشمال وعلى هذا الأساس سيكون قولنا في اختلاف

لهجات العربية وعوامل تهذيبها وكان ظاهر العنونة يقتضى أن نقدم القول فى اختلاف اللهجات عليه فى عوامل التهذيب لولا أن ما سنسوقه بعد من اختلاف فى اللهجات هو بقايا ما مكث منها على الرغم من تلك العوامل حتى جاء الاسلام وفى هذا ما يدعوا الى عكس الترتيب

عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذى حدث فى اللغة الى أمرين أحدهما السير بها فى طريق التحسين والترقى بمجهود كل قبيل على حدة وبقطع النظر عن أن يتقرب فى ذلك الى لهجات غيره من القبائل الاخرى والثانى العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض تقريبا ينتهى كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد ولكل من هذين الأمرين عوامل هى المجتمعات الخاصة للاول والعامة للثانى على أنه من الطبيعى أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد عاملة عليه أيضا من الناحية الاخرى فما هى اذن تلك المجتمعات

١ - المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم اليها أحوالهم وشهدت بها الفاظهم وكلها كان يستدعى منهم أن يقولوا ويتكلموا محاولين فى ذلك تجويد قوهم وتحسين كلامهم ما أمدتهم القرية وطاوعهم البيان وفى هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقى ما نريد أن نقول

فمن المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو اغارة وكان يقع غالبا فى قبة ينصبها من تكفل بأمرهم فيجتمع فيها أهل الحل والعقد منهم ثم تدور أقداح القول ويجرى النقاش فيه تأييدا أو نقضا حتى يصلوا الى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ومن هنا نشأ ما يذكرونه عن رأى البيت والاقبال عليه والرأى الفطير والانصراف عنه

ومنها ما كان للحكمة والفصل في الدعاوى والمنازعات فيستعد كل فريق
للدلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره أمام حكم يرضونه ويدعون لحكمه وقد
كان هؤلاء الحكم يختارون ممن عرفوا بحصافة الرأي وحضور البديهة وقوة
البيان حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من
تلك المعمة الكلامية التي يريد أن يخرج منها كل طرف في الخصومة فائزا على
خصمه منصورا

ومنها ما كان للاتعاظ والاعتبار فما خلا قبيل من ذى بصيرة نافذة ونفس
طاهرة يجتمعون اليه بعض أيامهم لاستماع ما فيه ترغيب أو ترهيب كما توحى
عقائدهم وتنطق فطرتهم ومن هذا النوع ما كان من اجتماع قريش حول كعب
ابن لؤى كل يوم عروبة يعظمهم ويذكروهم ويقال إنه لذلك سمي يوم الجمعة وإنه لذلك
أيضا واسبقه يومي السبت لليهود والاحد للنصارى اختاره الاسلام بعد لجعل
صلاة الجمعة فيه

ومنها ما كان للتحالف والتعاقد على الدخول في أمر أو الكف عن أمر مما
يتطلب من ذوي المكانة والزعامة قبل الدعوة اليه قولاً وبيانا ومن
السامعين مدافعة وحوارا حتى تستقر الاشياء في أنصبتها وتطمئن النفوس الى
الايمان بها. ومن ذلك حلف المطيبين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من بنى
عمهم عبد الدار ما أعطاهم إياه أبوها قصى بن كلاب من أمور البيت فأبوا
عليهم وكاد يقع الشر لولا هذا الحلف الذى قسم الامور بينهما وانما سمي بذلك
لانهم غمّسوا أيديهم حين عقدوه في طيب مسحوا به الكعبة وكيد الله وتوثيقا
وكثيرا ما كان يقع التحالف اذا تسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحد ويتهمج
على العرف فيهب أشرافها يتعاقدون على التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر كما

فعلت قريش في حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب وسفيان بن حرب
ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة سنة وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه
وسلم «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم
ولو دعى اليه فى الاسلام لاجبت»

ومنها ما كان اذا خلوا من تلك المشاغل لمحض الانس وترويح النفس بذكر
ما سلف من الحروب والوقائع وقص ما دضى من السير والاخبار وتناشد ما
حلا من الرجز والقريض الى غير ذلك مما تنشرح له الصدور وتنتعش به الافئدة
وكان هذا النوع من المجتمعات لا يقع غالبا الا ليلا ولذا سمي حديثه بالمسامرة
والسمر وهما فى اللغة حديث الليل وكانت عاداتهم فيه أن يتحلقوا وفى وسطهم
من ينتهى اليه أمرهم وأحيانا كان يتحمس المتكلم اذا أراد ذكر قصص غريب
فينهض لالقاء واقفا كما يفعل الخطيب

هذه هى المجتمعات الخاصة وقد قطعت فى تهذيب اللغة بالمعنى الاول شوطا بعيدا
ولها أسست الاندية ومن أقدمها دار الندوة التى أسسها قصى بن كلاب فكانت
تجتمع اليه فيها قريش للامور السالفة ليلا ونهارا ولهذا سمي مجمعا على أن الاجتماع
بها لم يقتصر على تلك الامور بل تعداها الى غيرها كالملايك والاعذار فكان
يقع من الكلام ما يلائم الموضع وع ومن الخطب ما يناسب المقام

ب — المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعنى بها ما أدى الاجتماع فيها الى الاختلاط بين
قبيلتين أو أكثر أيا كان الدافع الى هذا الاختلاط ونقصد منها أكثر ما نقصد
العمل على التقارب والتوحيد بين لغات القبائل وبخاصة بين يمن ودضر وإن
كانت تؤدى مع هذا الى ما سبق ذكره من الحسن والارتقاء وقبل أن نتكلم
على عواملها وهما قريش والاسواق لابد لنا من القول بأن العامل الاساسى قبل
هذين كان اختلاط القحطانية بالعدنانية حيث غادرت كثيرتها اليمن منذ القديم

لسيل العرم أو للعيش أو لغيرها من أى شىء تشاء فملاّت من الجزيرة العربية وسطها وشمالها وما بعد من أطرافها وبذلك كان تخالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالى الايام ثم كان ماسنذكره عن قريش والاسواق فضعفت كل الضعف وزال ما بقى من فارق أو كاد

قريش

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مبارك » رفع ابراهيم قواعده وابنه اسماعيل فأقاما أركانها وأتما بنيانه وتقبل الله دعاءهما الذى حكاه سبحانه يقوله عنهما « واذا رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » فكان بيتنا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصى ويأتون اليه من كل فج عميق يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه ولقد كانت أفئدتهم تهوى اليه استجابة لدعاء نبيه وخليفه حيث يقول « ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وما زال هذا البيت محل وفادة لجميع العرب من لدن اسماعيل حتى جاءت قريش فكانوا جيرته الأدين يقيمون حوله ويقومون بسدائنه توفيراً لراحة زائريه وعملا على ارضاء قاصديه يستمعون جميع لهجات العرب اذا دعوا ولبوا أو تضرعوا وتوسلوا وإذا أرادوا أمراً أو قصدوا شيئاً فلا يزالون موسم الحج على طوله وإذا لم يك حج كان اعمار ينقلون إلى لغتهم ما يستحسنون من ألفاظ وعبارات وينقل الوافدون اليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم فينشرونه فى أرجاء الجزيرة ونواحيها وهـ كذا دوايك بقيت قريش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهذيب حتى تهذبت عبارتها وترقى أسلوبها واتسعت

لغتها وصارت أوفى بتأدية المراد من غيرها وأصبحت لهجة مكة وهي حاضرة
العرب وبلدة قريش أوضح اللهجات بيانا وأعذبها أسلوبا وأخفها منطقا وأوسعها
فهما شأن اللهجات في حواضر المدن وقواعد الممالك تجدها من الحلاوة والطلاوة
مالاتجد لغيرها من سائر مدنها وجميع قراها ثم لم تك قريش محل وفادة فحسب
بل كانت بحكم عملها التجاري لا تزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف
إلى اليمن جنوبا والشام شمالا فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرها إلى غير هذين
الأقليمين ما تصادفه من خلاف غزوا يكسر من حدته ويفل من غربه فإذا هو
مستكين ضعيف يتوارى ثم لا يلبث أن يزول

الأسواق

جمع سوق وهي مجتمع الناس أصلا للبيع والشراء وكانت للعرب أسواق
عامة يبدؤون التنقل إليها من أوائل سنتهم بالشمال ثم لا يزالون يسيرون إليها شرقا
فجنوبا حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتهاء رمضان فتعمد جميع القبائل إلى
الاستعداد خلال شوال للرحلة إلى سوق عكاظ فيعمرونها من أول القعدة
إلى عشرين منه ثم يغادرونها إلى مجنة قرب مكة بقية القعدة ومن مجنة يذهبون
أول الحجة إلى ذي المجاز بجانب عرفة لا بمنى كما قد يقال ومنها يكون المنصرف
إلى الموقف الأعظم في عرفات وبالصدور منه ينفرط عقد الناس

ولما كانت هذه الأسواق الثلاث قريبة المكان من مكة والزمن من موسم
الحج كانت أعظم الأسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا وكل
مجتمع كهذا لا يخلو والناس يزحم بعضهم بعضا من بادرة غضب أو سابقة قول
وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين فيرى كل من المتنازعين حوله
من الخلطاء والبعداء ما يطلق من لسانه ويشير من انفعاله فيقول ويفخر والجموع
مثار القول والفخر ثم ينصرفان وفي نفس كليهما موطن لم يبلغه فيعود هو

أو أحد عشيرته إلى السوق من عامة القابل وقد أعد قولاً يرد به على منازعه ويستكمل به نقصه وهكذا بدأ التجار بالكلام في الاسواق وما زال آخذاً في الازدياد حتى كان خير بضاعة أو هو البضاعة النافقة في هذه الاسواق وأخصها عكاظ فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بها عدته وللفخار آيته فيستمع المحكمون ويقدمون أو يؤخرون وفي هذا من الباعث على الروية في القول والتخير للنظم مارع من صناعة الكلام وجعل التروىء من عادة الكثيرين وقد كانوا من قبل ينطقون دون سبق روية أو تفكير وشتان ما بين البديهة وإن وافقت الصواب وسداد البصيرة وهدى التفكير

وإذ كان الشعراء والخطباء وكل ذى كلام يريد له سعة فهم وكثرة ذبوع ولا بد أن يريد يرون لغة قريش أو في اللغات بهذا فقد انشأوا إليها جميعاً يستوحون فصاحتها وبيانها ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى والامام الذى بقوله يقتدى عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها وكانت الاسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب حتى قارب توحيد اللهجات التام واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ولمعرفة مواطن الاعجاز فيه فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات

اختلاف اللهجات

ليس أمامنا من قول فى اختلاف اللهجات بعد الذى قدمناه من أن عوامل التهذيب قد تغلغت فى اللغة فنقتها وهذبتها ووحدتها فى مجموعها وقربتها وجعلت لغة قريش معروفة للجميع يمتاكون زمامها ويفضلون القول بها على غيرها سوى أن نذكر بعض هذه اللهجات لتضم إلى ما قدمناه منها فى الابدال

١ - لليمن

١ - تلتلة بهراء . وهى كسر حروف المضارعة إلا همزة إخال فانها عامة

الكسر لدى الجميع

٢ ، ٣ - وهم كلب وو كمها . والاول كسر هاء الغائب دون أن يسبقها

كسر ولا ياء ساكنة . والثانى كسر كاف المخاطب بعد الكسرة

والياء الساكنة وقبل ميم الجماعة

٤ ، ٥ - استعمال ذو وفروعها بدل الذى وفروعها عند طي . وفتح عين

الناقص المكسورة عندهم أيضا

٦ - حذف نون اللذين واللتين رفعا عند بلحارث من مذحج

٧ - اعراب المثني بالالف عند بطن من كلب يدعى ربيعة

٨ - حذف بعض الحروف دون علة عند أزد الشجر وعمان مثل مشالله

فى ما شالله وتسمى اللخلخانية

ب - لمضر

١ ، ٢ - ضم هاء الغائب بعد كسر أو ياء ساكنة عند الحجازيين . والزمامهم

ما النافية عمل ليس

٣ ، ٤ - عدم اعمال ما عمل ليس مطلقا عند تميم . وقصر أولاء الاشارية

ومد ألى الموصولة عندهم أيضا

٥ - اختلاس هاء الغائب أو تسكينها بعد حركة عند بنى كلاب وبنى عقيل

٦ - اجراء الذين مجرى جمع المذكر رفعا عند بنى عقيل وهذيل

٧ - قلب ألف المقصور ياء إذا أضيف إلى ياء المتكلم مع ادغامها فيها

عند هذيل

ج - لهجات غير مقيدة بيمين أو مضر

- ١- اعراب الاسماء الخمسة بالحركات مقدرة على الالف أو ظاهرة على عينها
 - ٢- اعراب المنقوص نصبا كما عرابه رفعا وجرا
 - ٣- الحاق الضمائر بالفعل على أنها علامات تثنية وجمع
 - ٤- زيادة حروف لين باشباع الحركات في المد
 - ٥- ترقيق المفخم بطريق الامالة من الفتح الى ما بين الفتح والكسر
 - ٦- تسكين بعض المتحرك بدون علة كالعين في معكم
 - ٧- الاختلاف في نوع حركة أحد الساكنين حين التخلص من التقائهما
 - ٨ - » » التذكير والتأنيث حيث لا يجب أحدهما
 - ٩ - » » الهمز والتسهيل
 - ١٠ - » » الفك والادغام
 - ١١ - » » صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة
- هذا ومن اختلاف اللهجات أيضا اختلاف القبائل في معاني الالفاظ اختلافا نشأ عنه الترادف والاشتراك والتضاد وقد تقدم وجه الرأي فيه

معارف العرب في الجاهلية ومعتقداتهم

ينبغي لمن يتعرض لهذا الموضوع بالكلام أن يصدره بأمرين جديرين
بالعناية هما: —

أولا أن المقصود من كلتي معارف ومعتقدات ليس ما يفهم من كلتي علوم
وأديان بالمعنى الذى يعرفه الناس لان الحياة البدوية الجاهلية تأبى هذا الاطلاق
فما كان علم من غير حضارة ولا كان دين بغير دعوة وكلا الامرين لم يك
موجودا في الجزيرة العربية قبل الاسلام الا في أجزاء قليلة من أطرافها لا
يصح تغليبها على المجموع الكثير ولهذا اختيرت الكلمتان السابقتان في العنونة
له دون أختيهما اللاحقتين

وثانيا أن ما عرف عنه لم يك مرجعه الاثر والحفر أو التدوين القديم كما
هى الحال في بعض التواريخ فان العرب كانت بعيدة اذ ذاك عما تستلزمه هذه
الاشياء من تقدم في الصناعة ومعرفة بالكتابة اما كان مأخوذا مما نطقوا به
في أشعارهم وما قصه القرآن من أحوالهم وهو لا يعدو في المعارف نتيجة
التجربة وفي المعتقدات أثر العادات الا ما أخذوه في النوعين عن غيرهم من
الامم ذات الحضارة أو الدين أو الاثنين معا كالروم والفرس واليهود بحكم
المخالطة والجوار كما سنقصه بعد بالاجمال .

اولا — المعارف

١ — السماء وكائنات الجو

اعل خير معارفهم في الجاهلية علمهم بالسماء وكائنات الجوالارتباط ذلك بمعاشهم
من حيث توقف حياتهم على المطر وهدايتهم على النجوم وقد استعانوا على كثير من

هذا العلم بالكلدانيين وهم بقايا كهنة بابل عباد الكواكب ذوى المهارة فيه ويعرفون عند العرب بالصابئة والى هذا يرجع السبب فى اشتراك كثير من الفاظه ومصطلحاته بين العربية والكلدانية

وقد عرف العرب الافلاك وهى مدارات السيارات وكثيرا من الكواكب والنجوم وعرفوا السيارات السبعة وهى الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وكذا البروج الاثنى عشر وهى ما يقع من الكواكب والنجوم فى سمت مدار الشمس وسموها بأسماء الصور التى تشابهها من بعض الحيوان أو النبات أو الادوات وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت كما عرفوا منازل النجم الممانيّة والعشرين وهى الكواكب والنجوم التى تقع فى سمت مداره ويقطع كل منزلة منها فى ثلاث عشرة ليلة وقسموها على الفصول الاربعة الشمسية فجعلوا لكل فصل سبع منازل وهى بالترتيب السرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهقعة والذراع للربيع ، النثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعواء والسماك الاعزل للصيف ، الغفر والزباني والاكيل والقلب والشولة والنعام والبلدة للخريف ، سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية والفرغ الاول والفرغ الثانى والريشاء للشتاء .

وهم يسمون هذه المنازل بالانواء والنوء عندهم النجم يسقط تحت الافق الغربى مع الفجر ويطلع رقبه فوق الافق الشرقى من ذلك الوقت ولما كان الذى يهمهم هو المطر وما يتبعه من رياح وحر أو برد قسموا السنة من حيث المطر سبعة فصول سموها بأسمائه وهى بالترتيب البدرى وأنوائه ثلاثة تبدأ بالفرغ الاول ويليه الوسمى أربعة أنواء والولى عشرة والغمير

أو المد أربعة والبسرى اثنان وبارح القيظ ثلاثة ثم احراق الهوى وهو اثنان وعلى ترتيبها هذا يبدأ المطر ضعيفا ثم يأخذ في الزايد حتى يبلغ أشده في الولى ثم يعود الى التناقص حتى يكون الجفاف .

٢ - البيطرة والطب

ومن خير معارفهم بعد النجوم البيطرة وهى تطيب الدواب من ابل وخيل لشدة حاجتهم اليهما وبخاصة الخيل فقد بلغوا درجة كبيرة فى تعرف أمراضها وعوارض هذه الامراض وكيفية معالجتها وساعدهم على ذلك واسع علمهم بصفات وطباعها وعيوبها مما استفادته بحوثه وأمد الرواة بالتأليف فيه ويغلب أن يكون علم البدو بكثير من ذلك الى الآن موروثا عنهم .

أما طب الانسان فلم يك عندهم فيه شيء ذو بال الا ما كان من الحكى والبر والكن فى أواخر الجاهلية ظهر فيهم بعض الاطباء كالحارث بن كلدة الذى تعلم الطب فى فارس وزاوله ببلاد العرب وهو صاحب المحاوره الطبية المشهورة مع كسرى وقد سأله فيها عن كثير من قضايا الطب فجاءت إجابته عنها أشبه برسالة طبية ذات قيمة. هذا على أن جهل العرب بالطب لم يمنعهم أن يعرفوا كثيرا من أسماء العلل وسماتها والامراض وعوارضها كما تدل على ذلك ألفاظهم الموضوعة فى هذا الباب

٣ - التاريخ والانساب

لم يك عندهم شيء ذو نظام من علم التاريخ انما كانت لديهم أخبار مقتضبة متوارثة وقفوا عليها بجاورتهم للفرس والروم ومخالطتهم لليهود وبما أسس فى أطراف جزيرتهم من ملك وبعث هناك من أنبياء وبالرغم من أنهم بكروا فى وضع شهورهم القمرية وفى علمهم بالسنة الشمسية لم يستخدموا التاريخ بالسنين كما فعلت الامم حولهم مكتفين بقواهم للزمن القديم عادى وللاقدم

منه زمن الفِطْحِ والمستغلين عظام الحوادث للتأريخ وكلما جددت حادثة عفت على سابقتها وهكذا بقوا حتى جاء الاسلام .

وبتمدار اضطرابهم في التاريخ كانت دقتهم في الانساب فقد كانوا يلمون بها الماما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكان أعلى النسب عندهم الشعب ومنه تنشعب القبائل ومن القبيلة تكون العائلات فالبطون فالنخاز وليس بعد الفخذ إلا الفصيلة. ولقد كان فيهم نسابون تعيا الدفاتر ولا يعيرون وتضل الكتب ولا يضلون ساقهم الى ذلك حرصهم على سلامة أنسابهم ونقاء أحسابهم لحاجتهم الى النسب في المقاتلة والمناصرة والى الحسب في المتاخرة والمتافرة مع شدة طلبهم للثأر وعدم التواني في أخذه ممن هو محله أو هو منه قريب

٤ - القيافة والعيافة

القيافة أصلا الاهتداء بآثار الاقدام على أربابها غير أنهم توسعوا فيها فجعلوا منها الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسبه وتسمى الاولى قيافة الاثر والثانية قيافة البشر وقد كانوا في الاولى يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب والبصير والاعمى والاحمق والكيس وكذلك كانوا يفعلون في الحيوان. وكانوا في الثانية ينظرون عدة أشخاص مجهولي النسب لهم فيلحقون كلا برهطه وعشيرته فاذا كانوا من رهط واحد ألحقوا الابن بأبيه والاخ بأخيه والقريب بقريبه وقد اشتهرت بهذا النوع قريش والنوع الاول بنو مدلج وهم بطن من كنانة كما اشتهر من غيرها في النوعين أفراد كثيرون . وكلاهما ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال أوجدته في المستعدين منهم حاجتهم الى تعرف الآثار وحقيقة الانساب والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة بل هي أم الاختراع وان المطلع على ما روى من هذا عنهم آيناله الدهش الكبير . أما العيافة فأصلها الاستدلال بأسماء الطيور وسقوطها وارتفاعها على ما يتفاعل

به أو يتشاءم منه ولا يكتنهم توسعوا فيها أيضا حتى تعدت الطير إلى غيره من حيوان ونبات وجماد وتعدت ما تقدم من الاسماء والسقوط والارتفاع إلى الاصوات والحركات وسائر الاحوال والصفات. وهى كالتيافة ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال وقد اشتهرت بها قبائل اخصهم بنو طب وهم بطن من الازد وأفراد آخرون. وكان من عادتهم فى عيافة الطير أن يزجروا على السانح ويتبركوا به وهو ما أراك مياسره فأمكن الصائد منه ويكرهوا البارح ويتشاءموا منه وهو ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد منه وهذا من زجر الطير سقوطا وارتفاعا. وكثيرا ما كانوا يزجرون بالاسماء فيجعلون المدهد هدى وهداية أو يأخذونه من الهد والالتلاف كما يأخذون الحمام من حم اللقاء أى قرب أو من الحمام وهو الموت ويجعلون العقاب عقيب خيرا وعقبى شر وكذلك فى سائر الطير إلا الغراب فانهم لا يخرجون فيه عن التطير والتشاؤم فيجعلونه من الاغتراب ويسمون غراب البين كما يسمونه حاتما لانه يحتم عليهم بالفراق والاعور تطيرا عليه إذ كان أصبح الطير بصرا ولعل ذلك أتاه من تعوده الوقوع فى مواضع الدور يتلمس إذا بان أهلها للنجعة وبعضهم كان يضم اليه فى الرحلة والنوى التطير بالابل لانها المنترقة للالاف والكن ذلك لم يك بالكثير المقبول إذ أنها من جانب آخر آلة الوصلة واللقاء

٥ - العرافة والكهانة

العرافة هى القضاء بالغيب وكذلك الكهانة لا فارق بينهما غير أن من الناس من قصر العرافة على تعرف ما خفى من حوادث اناضى وجعل الكهانة للتكهن بما عسى أن يكون فى المستقبل ولكن لم نجد أثرا بينا يسمح بهذا التخصيص وكل ما يمكن أن يعد فاصلا بين النوعين هو أن العراف كان دائما أقل من الكاهن وكان يستخدم خبرته غالبا فى معالجة بعض الامراض ولهذا كان

مقصود المرضى وذوي الاسقام يؤيد ذلك ماورد من أشعار ومن أشهر العرافين بالتطبيب والغالب عليه التطبيب الروحاني رباح بن عجلة باليمامة والاباق السعدي بنجد . أما الكاهن فكان يفرع اليه في تعرف الحوادث ويقصد في المنافرة والخصومة للقضاء فيها بالحق من إدراك غيبه وكان من أشهر الكهنة في العهد الجاهلي سطيح بن مازن الغساني وشق بن أنمار النزري وسواد بن قارب الدوسي والكتب الادبية والتاريخية ملأى بحوادثهم وحكاياتهم . هذا .

ويعمل العلماء الآن لحوادث الكهانة التي لاشك في صدق بعضها لدى العرب وغيرهم من الامم القديمة في مصر واليونان والرومان والهند والصين بازجاءها إلى ما أثبتته العلم الحديث من السببات المغناطيسى وهو عبارة عن تخدير يحدث في الجهاز العصبي الحسى تنفصل على أثره النفس من الجسم فلا تبقى مرتبطة به إلا ارتباطا خفيفا لانها بهذا الانفصال تعود إلى جانب من حرقتها الاصلية فتبدو منها تلك الادراكات الغريبة التي عجز الماديون عن شرح عليها والتي نسبتها الاديان في رأيهم لتقريبها لاذهان الناس إلى الملائكة أو الشياطين ويقولون لما كان انفصال الروح عن الجسم لا يبلغ متناه مهمما كانت درجة السببات إذ نهايته الحققة لا تكون إلا بالموت كان من الحتم أن يبقى شيء من الرابطة يعكر صفو هذا الانفصال فيتسرب الكذب إلى كثير من مدركات النائمين ومنهم الكهنة والعرافون الذين كانوا يلقون أنفسهم في السببات لما ثبت من أن الاستعداد الشخصى في النائم والمنوم قد يجتمع في بعض الناس ومن ثم نهت الشرائع عن الركون إلى الكهنة وكانت العقيدة الحققة أن الله سبحانه هو وحده المستأثر بعلم الغيوب

٦ — الخط العربي

قد كان يجمال بنا ألا نعد الخط العربي من معارف العرب الجاهليين في شيء لانهم

كانوا أميين في عموم البدو ومن قرأ أو كتب في حصرهم كان خطه قاصرا
 وقراءته غير نافذة ولكن وجوده فيما تحضر من دولهم قديما باليمن والحيرة
 ولهجوم في لغتهم بكثير من الالفاظ الموضوعه له ولادوات الكتابة ولو لم
 يعرفوها الى ما كان لهم فيه من شأن بعد الاسلام ارتكز على الخط الحيرى القديم
 كل هذا جعلنا لا ندعه دون كلمة عنه تعتبر تاريخية في هذا الموضوع فنقول.
 لا خلاف في أن منشأ الخط العربى القديم كان ببلاد اليمن في الخط المعروف
 بالمسند الذى ساد بها على عهد السبئيين والحميريين وهذا المسند يرجع الى الارامى
 وهو خط المعينين أقدم الامم الارامية نزوحا الى هذه البلاد. والارامى مقتبس
 من الفينيقي المأخوذ من الخط المصرى القديم ولما انتقلت كندة وهى من كهلان
 الى شمال الجزيرة العربية انتقل معها المسند فعرف بالكندى ثم بالنبطى نسبة
 الى جيل عربى عرفه منها هناك ومن كندة والنبط أخذته أهل الحيرة والانباء
 فنسب اليهما وعنهما نقله الى مكة بالحجاز حرب بن أمية قبيل الاسلام فتعلمه
 عدد من أهلها كان منهم كتاب الوحي بعد على عهد رسول الله وبعد تأسيس الكوفة
 على مقربة من الحيرة عرف الخط الحيرى باسم الكوفى ثم أخذ يزاد زخارف
 وأنواعا على توالى الحضارات الاسلامية حتى وصل الى ما نراه الآن

ثانيا — المعتقدات

كان للعرب في جاهليتها معتقدات شق بعضها يجرى مجرى الشريعة والمذهب
 هي الاديان وبعضها يجرى مجرى العرف والعادة هي الاوابد .

١ — الاديان

ففي الاديان كانوا كثيرى المذاهب الى الحد الاقصى

١ - عبدة الاصنام وهم الغالبية العظمى وعقيدتهم الاقرار للخالق بكل شيء
واكنهم ينكرون البعث وارسال الرسل ويعبدون الاصنام لتقربهم الى الله زلفى
٢ - عبدة الشمس أو القمر أو النجوم وعقيدتهم كعقيدة عباد الاصنام
وكذلك موقفهم فى عبادتها فهم يتخذونها قربى الى الله لانها من دلائل
عظمته وباهر آياته .

٣ - عبدة الملائكة طمعا فى خيرها والشرهاطين خوفا من شرها على أنها جند الله
وهم فى العقيدة كالسايقين . ومثلهم عبدة الجن على أن فيها الخير والشرير
٤ - عباد النار كالمجوس وقد سرى اليهم ذلك من الفرس وبيوت النار عندهم
كبيوت الله عند ذوى الكتاب

٥ - الصابئة وهم عباد الفلك الذين يعظمون بروج الشمس الاثنى عشر
والكواكب السبعة السيارة ويشبتون لها ما يشبته الموحدون لله وقد سرى
هذا المذهب اليهم من سكان بابل القدماء هذا على أنه قد كان فى الصابئة قبل
الاسلام من عدل عن هذا الى دين ابراهيم كما كان فيهم بعده من هو شديد
الميل الى دين المسلمين ولذلك ذكروا فى بعض الآيات على أن منهم المؤمنين
٦ - الشيون وهم القائلون بان الاله اثنان اله خير هو النور واله شر هو الظلمة وأنهما
قديمان ثم يشبتون لهما من الصفات ما يشبته المؤمنون لله وهؤلاء هم الزنادقة
٧ - الدهريون ومذهبهم إنكار الخالق والبعث على أن الطبع يحى والدهر ينفى
٨ - اليهود وكانوا فى يثرب واليمن

٩ - النصرانيون فى الشمال من ربيعة وغسان وفى الجنوب فى نجران

١٠ - الموحدون وكانوا آحادا يدينون بما تسرب الى العرب من ملة أبيهم
ابراهيم والمعروف منهم قليل .

ب - الاوابد

وكذلك كانت لهم أوابد كثيرة ينزلون على حكمها ويعملون بها وأهمها .

١ - استقسامهم بالازلام وهى قداح مكتوب على كل اثنين منها الامر وضده كسافر أو لا تسافر مثلا فاذا ما أراد أحدهم شيئا ذهب الى سادن الوثن فأخرج له أحدها فعمل بما فيه

٢ - تفاخرهم بأعب الميسر وهو المقامر وبالقداح وعددها عشرة الفذ بنصيب والتوأم باثنين والضرب أو الرقيب بثلاثة والجلس بأربعة والنافس بخمسة والمسبل أو المصلح بستة والمعلى بسبعة ثم السفيح والمنيح والوغد ولا أنصبة لها انما كانت تخرج فتزد تضليلا لذوات النصيب . فكان من عادتهم اذ أرادوا اللعب أن ينحروا جزورا يقسمونها عشرة أقسام ثم يأخذوا فى استخراج القداح بعد تقسيمها عليهم وكلما خرج قدح أخذ صاحبه نصيبه وعمدوا إلى النحر اذا قلت الانصبة الباقية عن إيفاء اكبر قدح لم يخرج وفى هذه الحالة يكون الغرم فى ثمن ما نحر على ذوى السهام الباقية وهكذا حتى تنهى جميع القداح فتنتهى النوبة

٣ - حمايتهم البحيرة ببحر أذنبا أى شقها وهى الناقة تنتج البطن الخامس وكذلك كانوا يحمون السائبة وهى التى يسيبونها لنذر أو شبهه والوصيلة وهى أنقى البطن السابع للشاة واذا كان معها ذكر وصلته بالحماية وكذلك الحام وهو الفحل يخرج عشرة أبطن

٤ - إغلاق الظهر وهو جب سنام الفحل اذا بلغت الابل مائة ليمنع عنها العين ومثل ذلك التفقئة وهى فقء عينه اذا بلغت الفا فاذا زادت عنه كانت التعمية وهى الذهاب بعينه جميعا .

٥ - ضربهم الثور لتشرّب البقر على زعم أن الجن تركبه فتخيف البقر فاذا

ضرب ذهبت عنه ومثل ذلك كي السليم من الابل أمام الاجرب ليبراً
٦ - ومن عقائدهم في الاميت أن يحتبسوا على قبره ناقة يربطون عنقها الى
ذنبها مع تغطية رأسها فلا تزال كذلك حتى تهلك أو تنجو باعتدال عنقها أو
افتكاك رباطها وكانوا يسمونها البلية ويسمون الغطاء الحشية ومن ذلك
قولهم «رأس البلايا في الحشايا». وكانوا يزعمون أن القتييل اذا قتل
يخرج من رأسه طائر يدعى الهامة فلا تزال تقول «اسقوني اسقوني»
طلباً لثأره حتى يدرك ومن عادتهم هنا عدم البكاء على القتييل بما لم
يؤخذ بثأره

٧ - ومن عقائدهم في المداواة تعليق الحلي على السليم وتسهيده سبع ليال ووضع
منخل على رأس من تصاب شفته بالحلي مع المرور به في الحلي قائلين
«الحلي الحلي» وكذا تعليقهم للصبي سن الثعلب والمهرة وكعب الارنب دفعا
للنظرة أو الخطف ورميهم سن الاثقال في عين الشمس لتلحق بنجر منها
٨ - ومن عادتهم أيضاً وأد البنات للعار والاولاد للفقر وقد شدد الاسلام
النكير عليهما في ذلك

٩ - ومنها ايقاد النيران وأشهرها نار القرى ونار الحلف ونار الهداية ونار
الحرب ونار الفداء وهذه للنساء خاصة

ومنها غير ذلك كثير كوطء المقلاة دم الشريف ليعيش ولدها. وشق الرجل
برقع محبوبته والمرأة رداء حبيبها لكيلا يفسد العشق وكي الاليتين
ليذهب. وذكر الرجل أحب الناس اليه ليذهب خدر رجله. ومسح الطارف
العين المطروفة سبع مرات لتسكن وهكذا مما يضيق المقام عن سرده فضلاً
عن شرحه فليرجع اليه في مظانه على أنه سيأتي في تدوين الشعر لاحوال
العرب الاستشهاد على كثير من هذا بعد إن شاء الله

وبعد

فقد آن لنا أن نشرع في الادب الجاهلي بعد الذي ذكرناه بمثابة المقدمات له .
غير أن ما جرى عليه بعض الباحثين في هذا العصر من التشكيك في وصوله
الينا تشكيكا جعله في نظرهم بعيدا عن الثقة والاطمئنان حملني أن أصدر
القول فيه بكلمة ترد عليهم شكوكهم وتبرهن على أنه محل ثقة واعتقاد كما حملني
هذا الاغراب منهم في التفكير طمعا في الاتيان بجديد وان لم يك ذلك الجديد
بالمقبول أن أتبعها للرد عليهم أيضا بكلمة أخرى عن بحث لهم ثان ارتكبوا فيه
مثل هذا الشطط وأشد ذلك زعمهم أن الشعر أسبق الى الوجود من النثر .
فهاتان كلمتان جعلتهما في صدر الموضوع وان كانتا من أبحاثه في الصميم .

الادب الجاهلي

ألنا أن نظمئن اليه ندرسه ونرويه

ان لنا أن نظمئن

(٨) كانت العرب في جاهليتها أمة فصاحة وكلام ولسن وبيان لامطعن هنا
لطاقن ولا جدال ساقهم الى ذلك فطرة فطروا عليها من صفاء خاطر وذراية
لسان وحفزهم اليه طبيعة عيش اقتضت منهم أن يتغنوا ويرجزوا ويتفاخروا
ويتعاضدوا حتى كان الكلام بضاعتهم النافقة به تعمر أسواقهم ويتناقله عنها
حداؤهم وربكانهم فيدوى في أرجاء جزيرتهم دوياتهم به رمالها ويطرب له
كل ذى حياة يعيش فيها ثم لا يلبث أن تضيق به جوانبها فاذا هو قد جاوزها
الى الامم الاخرى وقديما كان لكل أمة سمة تعرف بها في غيرها وسمة العرب
الكلام.

كان طبيعيا اذن أن تقول العرب وأن تكثر من القول وأن يتناول ذلك
عصوى الادب اللتين عليهما نهض من نثر وشعر كل في الغرض الذى من أجله
كان وله درج ولكل مقام مقال. وكان طبيعيا مع هذا أن يتناقل السامعون كلام
القائلين خلفا عن سلف ابقاء للاغراض التى قيل فيها ومحافضة على المآثر
التى سجلها فاذا ماضى منها الى هاتين الطبيعتين ميزتين أخريين هما القدرة الفائقة

١٥
التي كانت معروفة للعرب على الحفظ واعتزاز كل قبيلة بمواد حسبها ومفاخرها
ضمننا بها أن تدول مضافا اليهما ما كانوا عليه جميعا من أمية جعلت دفاترهم
رعو سهم ودواوينهم حفظ أقوالهم كان لنا أن نطمئن الى أن هذه المناقلة الكلامية
تبقى ما بقيت هذه العوامل ذات كون وثقة وتأيد حتى يطرأ على العرب ما يغير
هذه النواميس ويطبعها على غيرها وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم
ولكن شيئا من ذلك لم يكن حتى جاء الاسلام

جاء الاسلام والجزيرة العربية تدوي دوى النحل قد ضل غيرانه بكل
مأثور من القول اعتر به حافظه وحرص عليه سامعه الى درجة لم يلهم عنها
الاسلام بحدته الاجل ودهشته العظمى فاستمروا من بعده طويلا يعقدون
عكاظهم ويسترسلون في مفاخرتهم ومنافرتهم وهل كان الاسلام الامتداد لاهلهم
في بابهم ومنازل ايامهم من واديهم وقد جعل آيته الكبرى القرآن الكريم يساجلهم
في الفصاحة ويحاجهم بالبلاغة ثلاثا وعشرين سنة حتى امتلك عليهم ناصيتها
واستل من ايديهم زمامها فألقوا اليه بقياد النثر وعكفوا هم على الشعر وهذه
احدى الدواعى التي جعلت مأثور الشعر أكثر من مأثور النثر كما سندكر
في محابتهما قلة وكثرة الى الطبيعة بعد

قد يقال كان للاسلام أن يغطي على القديم ويخذل الناس عن روايته
ولكن كيف وقد أودع تعاليمه وأحكامه كتاب الله وهو الذروة في البلاغة
وحديث رسوله وهو المقفى له من بعده وليس من سبيل الى استمرار فهمهما
والحرص على عدم استغلاق معناها الا برواية لغة العرب والمحافظة على تفهم
مأثورها وهذا لعمري داع ديني دعا الى الرواية والمدارسة منذ فجر الاسلام
وناهيك بالوازع الديني وبخاصة في ذاك العهد من حاث للهمم الى العمل ونائل
من النفوس مكانة التقديس والاجلال

حرص المسلمون اذن منذ جاء الاسلام على أدبهم حرصهم على دينهم وها هو ذا
 عبد الله بن عباس رضى الله عنه في تفسيره القرآن الكريم كان يجلس له
 ولدراسة الادب في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتضرب اليه أكباد
 الابل من أقصى الجزيرة وأبعد منه لسؤاله عن معاني كثير من مفردات
 القرآن ومحاكمته في معناها الى المأثور من كلام العرب فيروى في ذلك الكثير
 من الاشعار وما بغائب عنا ما كان لنافع بن الازرق أحد رؤساء الخوارج إذ
 ذاك في هذا الباب . ومن ثم كانت مذاكرة للادب القديم على عهد الخلفاء
 الراشدين بل وبالسنة بعضهم ثم حذا حذوهم في هذا وبشكل أوسع دائرة
 وأبعد مدى ملوك بني أمية فكانت مجالسهم مثاراً للادب يسوق اليه الاستمتاع
 واللهو والتسلى والقصص أو المفاخرة والمنافرة والخصومة والدد الى ما كان
 قائماً بجوار هذا في البادية مما استمر تظهر صورته بهكاظ طويلا وبمربد البصرة
 الذى خلقها إذ ركبت ريحها بل بسائر المجالس والمنتديات ومن هنا نشأت
 الرواية بالمعنى الاصطلاحي وكثر الرواة ولم يكمد كاهل هؤلاء يشغل بالحفظ
 والتعليق حتى انتشرت الكتابة وكان التدوين فرفع عنهم ما أثقلهم وجعلهم
 يوجهون جهودهم الى ما صمدوا له بعد من البحث والتحقيق

هذه طريق لا عوج فيها ولا أمت درج فيها الادب الجاهلى حتى وعته
 بطون الكتب فاذا بالكم الذى وصل اليها منه خاضع في مقاديره لما يقتضيه
 العقل وتطلبه سنة البقاء . فالشعر وقد صار هم العرب وحده لما تقدم من غزو
 القرآن النثر غزوة قللت من شأنه وصرفت الاذهان عنه قد حفظ منه أكثر
 مما حفظ من النثر الذى درس معظمه قبل أن يتصل بطبقات الرواة والواصلنا
 منه ما تنفذ دونه الصحف وتجف المحابر لانه للجماعة والشعر لافراد على أن

من الاسباب الداعية الى قلة مأثورة أيضا ما هو سابق للإسلام اذ لا شك أنه أصعب من الشعر حفظا وأبعد استدكارا وهذه نظرية خضع لها النثر في أقسامه كما خضع لها أمام الشعر في جملة فكان أكثره رواية أيسره حفظا إما لقلة ألفاظه وصغر صورته كما في الحكم والأمثال التي سهل على الالسننة تردادها وكانت الحوادث تدعو الى استعمالها فوصل منها أكثر مما وصل من غيرها بينما يجزم العقل أنها لا بد كانت قلة في كثرة ونقطة في لجة لصعوبة معالجتها وندرة الاشخاص القديرين عليها واما لانه مع طوله تقرب الى الشعر قليلا بالازدواج أو كثيرا بالسجع فكان في ذلك الاتزان في التقسيم والتوافق في التقفي ما جعله سهل الحفظ على الذهن شديد الاعتلاق بالنفس ومن ثم نجد المروى من المسجوع أكثر من المزدوج وهذا أكثر من المرسل مع أن الطبيعة التي يخضع لها صدور الكلام تأتي الا العكس ولا يمكن ما قيل شيء والذي روى شيء آخر ومن ثم أيضا لم يصلنا عن الجاهلية من الكلام المرسل الا القليل مع أنه كان الغالب الكثير ولولا أسباب خارجة عن كنهه الواصل قد حملت على روايته لباد كما باد سائرته فتعزية أكثر بن صيفي حكيم العرب لا أحد ملوكها في أخيه وهي رسالة وكلمة قبيصة بن نعيم رئيس وفد بني أسد الى امرئ القيس عقب مقتل أبيه وهي رسالة أيضا وفيها بعض ازدواج لولا مكانة الحادئين ومن قال ومن قيل له لعفتا فيما عفا وزالتا فيما زال ولمثل هذه الاسباب الخارجة كان المأثور في السجع عن الحكماء أكثر من غيره لغرابة موضوعه واتصال بعضه بالعقيدة مع ما فيه من اطالة التقفية وهذا حكم فيه ان لم يصدق كما صدق نسبة.

أبعد هذه الطريق التي تكنفها الطبيعة ويسايرها العقل يطعن في الادب

الجاهلي ويرمي كله بالوضع والاختلاق لتوافه زادها فيه بعض الدسائين
 وأساطير وضعها عليه بعض القصاصين ومطاعن وجهت الى آحاد في جمهرة
 الرواة ثم يدعى بجرأة الى دراسته في صدر الاسلام وعصر بني أمية كأن الزمان قد
 وقف وكأن شيئا من احداث الاسلام المنزللة لم يك كان . ان هذا لاجحاف
 بالتفكير وظلم للعقول فالادب الجاهلي كثرة تتضاءل أمامها تلك الزعانف الموضوعة
 وصخرة تنكسر عليها هذه النفخات الطائرة على انها اذ ألصقت به وهو منها
 براء لم يتلبس الامر فيها على رواته بل مازوها ميز الخبيث من الطيب ووسموها
 بميسم الزيف أمام الجيد الصحيح عرفوا ذلك شفاها حيث كان مرجع الادب
 الحفظ ثم دونوه واضعين أمامه أدلة التزييف حين التدوين فما بال المدعين هذه
 الدعوى ينسبونهم اليهم تجديدًا ويدعونها ابتكارًا وآثار أقلام الاقدمين من
 أكثر من عشرة قرون تكاد تخرج اليهم من بطون الكتب فتسود عليهم صفحات
 وجوههم من هول ما يقولون *

أكان ما يقولون حقا ولم تظن اليه الشعوبية في القديم وقد مكثت قرونا
 تعير العرب ماشاء لها التعمير فتتلبس في كمالها نقصا وتجعل ما تظفر به من الحقيقير
 عظيما ثم لا تهتدي الى أن خير ما تفخر به العرب وهو قديم أدبها ليس لها وانما
 هو شيء انتحلته زورا وادعته بهتانا فتقف أمام ذلك لا تقدم رجلا ولا تحير
 جوابا بينما يكفيها نقضه وحده مئونة الكد المتعب والكدر المضني ألا انها
 وقفت لاعن خفاء وغيب ولكن أمام نور بهرها وسلطان قهرها لم يكدي لصق
 به كلف من ظلام او ينسب اليه زيغ من ضلال حتى ميزه ذووه ورموا به
 بعيدا مزجر الكلب ومنبذ النواة ولقد كان من الرامين النابدين بعض
 الشعوبيين .

وأكان مايقولون حقاً ويتركه في الحديث جمهور المستشرقين دون أن
 يخوضوا فيه بالتجريح والتخديش فيسودوا ناصع بياضه ويصيبوه في قدسه
 وجلاله بدل أن يرووه ويخدموه ويعترفوا به اعتراف من قهره الحق وأنطقه
 الواقع ثم يخرجوا من هذا بنتائج عن العرب قد يسوءهم تدوينها أولاً يرتاحون
 الى اثباتها فعلوا ذلك ولم يشذ عنهم الا من أضله الله على علم فشابع التعصب
 الديني وزحف الى الطعن في دين العرب من طريق الطعن في أدب العرب فأخذ
 ما ميزه الرواة لينبذ فأتبته وما فخصوا عنه ليستبعد فقره ومع ذلك لم يشايعه
 بنو جنسه ومنهم بعض رجال الدين وإن للحق لأنصاراً حيث تظن الظنون
 وتتوقع الخصوم

وإذا كان الأدب الجاهلي كله دساً وتخيلاً فما هو اذن الأدب الذي كان
 يروى في صدر الاسلام والدولة الاموية قبل أن يخلق الدساسون أمثال حماد
 الراوية في النصف الاول من القرن الثاني وخلف الاحمر من بعده في نصفه
 الاخير. وهلا اذا كان الدس يقع جزافاً وبغير حساب كان الاولى بالداسين
 أن يستكملوا لنا مواضع نقص في أدبنا كانت ولما نزل فاغرة فاها حتى يكون
 ذلك أسوغ لقولهم وأستر لدسهم كأن يدسوا بعضاً من خطب على رجال
 جاهليين ضرب المثل بقصاحتهم في الخطابة وكانوا فيها حكماً وعلى أهلها
 قواماً وليس للواحد منهم في المأثور شيء أوله مالا يتعدى الكلمة والكلمتين أليس
 لأن الامر لم يك كما يتخرون فوضى سبيل لا يضابط له ولا رادع عنه وهل
 يقبل منا أن نمرر المدسوس على رجال النقد وأرباب الكلام في عصور التدوين
 والتأليف ثم نزعم لا نفسنا الا أن أنابه أعرف ولم أميز وهل ميزنا غير ميزوا
 الا ماسقناه قولاً بلا حجة ونتيجة من غير مقدمة

ثم يقولون إن اختلاف الرواية دليل على الدس والله نشهد أن الروايات
في عهد يقع الاعتماد فيه على الحفظ وحده دون كتاب يسند أو نقش يؤيد لو
اتحدت ولم نر فيها ما رأينا من خلاف هو الطبيعي المعقول لكان لنا أن نتخذ
الاتفاق دليل الدس فكيف يتخذ الاختلاف دليلا علينا وهو لنا ويساق
ضدنا وهو حجتنا

آن للمجددين بالمعنى الذى يقحمون فيه كلمة التجديد بالمعنى الذى نحترمه
نحن أن يرعوا للقديم عهده وحق البحث حرمة وألا يتجاوزوا فى الأدب
الجاهلى ميز المدسوس عنه الى نقضه من أساسه فانهم اذا نقضوه وماهم بالغيه
ثم عادوا بعد ذلك يبنون وقع بناؤهم على غير أساس فاذا ما نقضوا فيه وصوروه
وتساندوا اليه فأقاموه لا يلبث أن ينحونهم وينهار « فأما الزبد فيذهب جفاء
وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال »

المنثور والمنظوم

أيهما أسبق إلى الوجود

أنا نقول بسبق النثر على الشعر

أظنه من الملائم في هذا المبحث أن يعرض المتصدي له أولا وقبل كل شيء للمعنى العام الذي يفهم من كلتا كلمتي نثر ونظم حتى إذا ما جللاه وأبان عنه وجعل الفارق بين المعنيين واضحا ملموسا عمد إلى هذا الفارق يحاكمه إلى الطبيعة ويستهديه القول فاذا هو الحكم الفصل والحق المبين . وأظنه من السهل محاولة ذلك مادامت كل كلمة في ظاهر لفظها تمدنا بالمعنى الذي ينبغي أن يكون الوجه في التفرقة والعامل على التمييز وأن ما عناه من مدلولات ليس إلا ضامم متممة مهما انحازت الى أحد الجانبين وظهرت فيه بمظهر المختص الملائم لا تعدو أن تكون شركة بينهما غير ناهضة وحدها أن تصلح فصلا . فما هو ذلك المعنى البارز الذي ^{HHH}تحمله كل كلمة والذي من أجله قدمنا تلك المقدمة وله صدرنا هذا التصدير هو بلا اجتهاد في الفكرة ولا اطالة في التعبير أن ينظم الشاعر في شعره وزنا وقافية يجعلانه مقيدا منظوما ويتحرر منها الناثر فيبجي كلامه مطلقا منثورا ^{HHH}واذن النثر أبسط من الشعر وفي الشعر كلفة ليست في النثر والنثر أقرب منالا ورجاله أكثر عددا والشعر أصعب محاولة والشعراء آحاد في أوساط الناس وهنا نسأل نواميس الطبيعة والكون وعوامل النشوء والارتقاء أيهما لذلك يجب أن يكون أسبق كونا وأقدم وجودا فيكون الجواب لا محالة ما أجبنا به آنفا من أن النثر أسبق من الشعر

وليس انحيازنا في التفرقة بين النثر والشعر الى جانب اللفظ دون المعنى لانا
 لا نعبأ بالمعاني أو لانا نسوى بينهما فيها فما يجهل أقل الملمين بالأدب أن الشعر
 يعتمد على الخيال أكثر مما يعتمد على الحقيقة وأنه يستوحى الشعور أكثر مما
 يستوحى الفكر على عكس النثر فيهما ولكنهما أغرقنا في التفرقة المعنوية
 فليس في استطاعتنا أن نباعد بين الخيال والنثر ولا بين الشعر والحقيقة فك
 نثر أو غل من شعر في التخييل والتصوير والتعبير عن الوجدان والشعور وكم
 شعر هو وعاء الحكمة والفلسفة وأدخل في باب التفكير منه في باب الخيال انما
 انحزنا إلى جانب اللفظ للابانة عن وجه التسمية بالنثر والنظم وأما لم تك عبثا
 ولم تأت اعتباطا انما وضعها الواضعون عن بصيرة وفكر لتكون خير دهر عن
 الفارق وأوضح مترجم عن التميز نعم عطف الواضعون على النظم فوضعوا له
 اسما آخر هو الشعر اشارة منهم إلى أن الوزن والتقنية وان وقعت بهما المقاصلة
 والمخالفة ليسا وحدهما المكونين للشعر بل لابد أن يغلب على دعناه الشعور حتى
 يكون اغترافه من ينابيع العاطفة والخيال أكثر مما يغترف من ينابيع الحقيقة
 والتفكير .

يقولون يقولون المخالفون في الفكره إذا كان النثر أسبق من الشعر فما بالنا نجد للامم
 القديمة شعرا ولا نجد لها نثرا ولكن فاتهم أن تلك قضية لا نفهمها كما أصدروها
 ولا نستطيعها كما هيئوها الا إذا سلمنا لهم بقضيتين أخريين كلتاها أبعد عن
 العقل من الأخرى

فأما أولاهما فانهم يعنون بالأمم القديمة أول ما يعنون اليونان والرومان
 فيمنفون عنهما النثر ويستبقون الشعر كأنما كل افراد هاتين الامتين أو أفذاذهما
 كانوا شعراء وكأنما لم تهيء أحوالهما الطبيعية — والأولى أمة فلسفة ومنطق

والثانية أمة تقنيين وتشريع ثم هما معا أمّا حكم وفتوح — أحدا من رجالهما
ليدافع عن فكرة أو يعمل لقانون أو يدعو إلى حرب وقتال. دلا كن الاسير
مع العقل والاطوع للفكر أن يقولوا كن لهما اثر وشعر واكن الشعر كن
قليلا والقليل محروس عليه فوعته الافهام وتناقلته الرواة في وقت تفشو فيه
الامية وتندر أو تنعدم الكتابة التي لا يتسع لقيد النثر سواها ثم الشعر مع ذلك
أسر حفظا وأكثر ذيوغا نعم كن لهم أن يقولوا ذلك فيقبل القول ويستقيم
الاستنباط ويكونوا منطقيين كما يدعون

وأما الثانية فانهم يريدوننا على أن العرب في جاهليتها لم يك لها نثر وأن
ما أثر عنها موضوع محتاق وهذا لعمرى تهجم على العقل ومطالبة لنا أن نكون
أمامهم أشباح أناسي لأناسي ذوى عقول والا فكيف لم يك للعرب في جاهليتها
نثر وقد تحداهم القرآن الكريم في النثر ووصفهم بأنهم كانوا قوما لدا واللد في
اللغة شدة الخصومة والمحاجة تمشيا مع ما هو مقرر معروف من أن التحدى
لا يحتفظ بكيانه ولا يكون له قوامه الا اذا وقع لكل أمة في الباب الذي تزعم
فيه نبوغا وتدعى لنفسها عليه قوة واقتدارا وإذا كان الامر هنا كما يقولون
أفما كان الاجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلت سائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع
فيها الى ذروة الفصاحة كما ارتفع حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر وقد نزل لهم
على الانتفاع بما حواه ثم يلتمس النبي للتحدى منحى آخر غير الفصاحة والبيان
وإذا أبي المخالفون إلا الفصاحة والبيان فان في مقدورنا مجارة لهم أن نقول
كان ينبغي لذلك أن ينزل القرآن شعرا لانثرا لانهم لازالوا يدينون لبعض
الجاهليين بالقدرة على قول الشعر لولا أن في تلك المجارة هدمما لما لا يرتضى ولا
يرتضون فقد جرد الله نبيه من أن يكون شاعرا كما جرده من أن يكون قارئا
وباعد بين القرآن والشعر فأعجز به منشورا أمة ذات قدرة فائقة على النثر

وقد أثر عنها فيه ما يؤيد تلك القدرة ويشهد بها ولا يمكن ضاع معظمه وبقى القليل
خضوعا لسنة الكون في الاضاعة والابقاء فلا محل اذن للشك في هذا القليل
انما الوجه في الشك يكون إذا كثر أو باد

ويقولون أيضا إن في عوام الأمم الحديثة من يقول الشعر بلغاتهم بينما
لا يحسن أحد منهم النثر وهذا قول نسلم بشرطه الاول دون الثاني فان من
يختلط بطبقات العوام ويرقب عن كذب مجرى أحاديثهم ومحاوراتهم يجد فيهم
كما نشهد في عوام المصريين مثلا سمارا تدار حولهم الحلقات وترهف اليهم
الاسماع فلا يزالون يلقون من عذب الحديث وجميل القصص ما لو كان هناك
تدوين للغتنا العامة لكان في الذروة من نصوصها والقمة من آدابها . وان في
تراشق امرأتين تختصمان في أحقر الازقة وأدنى الحارات لروعة لهذا الخصام
وقوة بيان لمناحيه لا تقل عن مثيلاتها في محاوراة أو منافرة مما دون اللغة مثلا

لقوة العارضة وآية على الاقتدار . وهل تجردت حياتنا العامة من حوادث
تدفع ذا رعاية ورياسة أن يحرض ويستنهض أو يخوف ويسترجع وذا قرابة
ولحمة أن يوصى ويرشد ويعظ ويذكر أم هل خلت عاميتنا من حكم وأمثال
تضارع في قوة المعنى وشدة الایجاز نظائرها القديمة وتحتل من قلوب السامعين
الآن ما كانت تحتله تلك في القديم بل لم تخل في نثرها من شيء هو لنثر أختها
العربية ولا يمكن كثرته واقتدار السواد عليه صرف الازهان عن تناقله وروايته
إلى شعرها الذي خلا من كثير مما حواه الشعر الصحيح فقل قائلوه واستخدم
دون النثر فيما كان أبقى له وأدعى إلى حفظه من حذاء وغناء مع ما في طبيعته
فضلا عن تلك الحاجة وهذى القلة من سهولة الحفظ وسرعة الاستذكار

ثم هم يقولون ان الشعر وجد قبل النثر وحين ضاقت أوزانه عن مظاهر
العقل تحول الانسان منه إلى الشعر ومعنى هذا ان كانت لنا عقول ان العقل

الانساني في طفولته كان قديرا على أن يعبر عما يريد بهذا الكلام الموزون المقفى والكنه بعد أن ترقى وجاوز دور الطفولة والادوار التي أعقبته فتم نضجه واستوى ارتد عاجزا عما كان عليه قديرا ولجأ في تعبيراته إلى الكلام المطلق من قيد التقفية والوزن . ياله حكما عليه من أولئك المخالفين إلا أن يعاند الطبيعة وما اتفق عليه الناس مرغمين دون أن يكون لهم إلى الخلاف فيه لو أرادوه سيميل ولسنا ندرى أيزكرون نتيجة لهذا أن الانسان خاق متحضرا ثم تبدى أم يزعمون أن اللغة وحدها شذت عن هذا الناموس العام أو أن الشعر على فرض سهولة التقفية والوزن خلو من كل منطق وتفكير . الحق أنا لا ندرى عنهم ماذا نقول . فالشعر بالغا ما بلغ من تصور وخيال لا غنى له في ذلك وفي مراعاة وزنه وقافيته عن عقل يسدى وفكر يهدى فما بالناس اذا كان بالفلسفة ناطقا ولادق نزعات العقل مصورا وقديما شبهوه بالدر المنظوم وما كان النظم بغير مجهود وتدبير وقالوا ان من الشعر لحكمة وما خلا منها منذ عرف في سالف الحقب وسابق الزمان

بقيت قالة أخيرة حملهم عليها التسليم ببعض الواقع هي قولهم إنا نقصد بالثر المسبوق بالشعر الثمر الفنى والكنه في عجز أو تعاجز عن تحديد هذا النوع الذى يريدون لانهم ان أرادوا بالفنية الاجادة التي نظامها في أنواع المنثور من حكمة ومثل وخطبة ووصية ومفاخرة ومنافرة على أن يسلموا للجاهليين في ذلك بما هو مأثور قلنا لهم إن الثمر قد بلغ اذن قبل الاسلام درجة لا تقل في مداها وقوة فصاحتها عما وصل اليه الشعر إذ ذاك وأن تلك الدرجة ما كانت لتكون دون أن يضرب الثمر في القدم إلى قرون ينعدم فيها الشعر أو يكون طفلا يحبو بينا الثمر قاسم يجرى على قدمين هذا إلى ما قدمنا من السنة القضائية بسبق البسيط على المركب واليسير على العسير وما تلا ذلك من مناقشة ما يقولون

فان انكروا هذا المأثور كما يدعون رددنا عليهم ذلك الانكار بما لاسبيل لهم معه
إلى كلام لانهم يعترفون بما ورد عن صدر الاسلام من كل هذه الانواع ثم
يعترفون مع ذلك بما لها من فنية فائقة على هذا الاعتبار ضاربين المثل بكلام
رسول الله والصحابة وكثير من المخضرمين فهل كان هؤلاء جميعا قبيل الاسلام
من الفهاة بحيث يزعمون ثم انقلبوا بين عشية وضحاها ثرين مهمرين؟ انا
ننتظر منهم الجواب. أما إذا حددوا الفنية بالكتابة وأساليبها وصناعة الانشاء
ونظمها مما يسوق اليه تحضر الامم ويدفع به تقدم العمران فانهم ينصرفون
بذلك التحديد إلى ما انصرف اليه الناس واذن فلا جدة ولا خلاف واكن
ذلك لا يرضيهم لانهم يأبون في هذا شأنهم في غيره إلا أن يكونوا مجددين
وذوى خلاف

النثر الجاهلي

أقسامه وأنواعه

إذا تتبعنا مادة المنثور الجاهلي لنرى كيف تتألف ألفاظها وتترابط أجزاؤها نجد أن منها ما تحرر من كل قيد فأطلق الناثر الكلام فيه اطلاقاً وأرسله رسالاً ومنها ما فصله جملاً يزوج بين كل اثنتين أو أكثر منها ومنها ما أضاف فيه إلى هذا الازدواج اتحاد التقفية في الفواصل فهو اذن ثلاثة أقسام قسم خلا من الازدواج والتقفية هو المرسل وآخر كان فيه الازدواج في الفواصل دون التقفية هو المزدوج أو المفصل وثالث ضم إلى الازدواج التقفية هو المسجوع ولا حاجة بنا بعد الذي تقدم في سبق النثر على الشعر أن نقول هنا إن المرسل لا بد وجد قبل المزدوج وهذا تقدم المسجوع فان ذلك من الضروري المفهوم انما الحاجة أن نقول إن السجع احدى الحلى اللفظية ذات التأثير البين إذا جاء عفواً غير متعمد ولذا التزمه السكهان والعرافون وأطالوا فيه لحسن وقوعه على الاسماع وشدة تأثيره في الطباع وسيتضح كل هذا فيما سنسوقه من نماذج لأنواع النثر فله أنواع كما للشعر فنون هي الحكم والامثال والمفاخرات والمنافرات. والخطب والوصايا. وهما هي ذى

١ — الحكم والامثال

(١) الحكمة قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مسلماته. والمثل قول محكي سائر يقصد منه تشبيه الذي حكى فيه بالذي قيل لاجله وهما صورة للكلام تصل إلى

الغاية القصوى في البلاغة من حيث إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن البيان
فترتاح إليها الطباع وتنشط لحفظها النفوس وتميل إلى الاحتجاج بها العقول
لأنها تورث الكلام رواجاً وتكسبه حسناً وقبولاً. وكما تكون الحكم والأمثال
نراً تقعان شعراً ولا كنهما في النثر أو في عدا وأكثر دورانا ولذلك عدا
من أنواعه لا من فنون الشعر

ولقد فاضت الحكمة على ألسنة الكثيرين من العرب لما أفاض الله على هذه
الامة في بداوتها من سلامة الفطرة ورجحان الفكر فكثرت فيهم العقلاء الذين
تفجرت ينابيع الحكم على أيديهم فعرفوا بالحكماء وانصاع إليهم السادة والاشراف
للتقاضى في المنافرة وفض المنازعة في الخصومات فكان قولهم مرضياً وحكماً
حتماً مقضياً نذكر منهم على سبيل التمثيل أكرم بن صيفي التميمي وعامر بن الظرب
العدواني

فأكرم كان من حكماء تميم وحكامها ذا فصاحة وبيان وعلم بالانساب
والاخبار ومن حكمه. ويل للشجي من الخلى ، ويل لعالم أمر من جاهله ، مقتل
الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لي صديقا ، في طلب المعالي يكون
العناء ، لم يذهب من مالك ما عظك ، يتشابه الامر إذا أقبل فإذا أدبر عرفه
الكيس والاحق ، نعم لهو المرأة المغزل . وقد كان جل كلامه في المجامع
مبنياً على الحكمة وضرب المثل كما هي الحال في خطبته أمام كسرى في وفود
العرب وفي وصاته لقومه حين ظهر النبي صلى الله عليه وسلم ولبنيه حين حانت
وفاته فقد جاءت كلها ملاءى بالحكم الناصغة والعظات البالغة

وعامر كان من حكام قيس وذوي المكانة فيها ومن كلامه. رب أكلة تمنع
أكلات ، رب زارع لنفسه حاصد سواه ، الرأي نائم والهوى يقظان ،

ويل أمها نصيحة لو كان من يقبلها ، من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به ، من طلب شيئا وجده وان لم يجده أو شك أن يقع قريبا منه ، إن مع السفاهة الندامة والعقوبة نكال وفيها ذمامة ، لو كان يميت الناس الداء لا حياهم الدواء

ويوجد غير هذين حكماء كثيرون وحكميات كغيلان بن سلمة الثقفي وربيعة بن حذار الاسدي وسامي بن نوفل المكناني وعمرو بن حممة الدوسي وذى الاصبع العدواني وكهند بنت الخس الايادية ، وحذام بنت الريان اليمنية. ومن أقدم حكماء العرب لقمان وينسب اليه من الحكم. رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكي. ولاكن العبرانيين ينازعون العرب فيه ويدعون له لا تقسمهم ويروون له حكما في كتبهم وليس لأحد الطرفين دليل حاسم ضد الآخر كما أن كثيرا من الحكم نسبت اليه على سبيل الشهرة لا التحقيق لمجيئها غفلا من النسبة إلى ذويها ولصعوبة القطع في معظم الحكم بنسبتها إلى قائلها لكثرة تردها على اللسان وتداول الاستشهاد بها في الكلام

هذا وكما كانت العرب قديرة على قول الحكم كانت كذلك وأقدر في ضرب الامثال فليس بينهما من فرق سوى أن المثل لا بد فيه من أصل واقع ينقل عنه وقد يفرض له ذلك الأصل فرضا إذا صدر عن حيوان أو نبات أو جماد وتعرف أمثال النوع الاول بالحقيقية والثانية بالفرضية . والامثال بنوعها مرعاة ترينا أحوال الامة في كثير من نواحيها وميزان وزن به إلى قدر أدبها ولغتها ورقبها وانحطاطها

ولقد عني السلف عناية كبيرة بتدوين الامثال. ومن خير ما وصلنا في هذا الباب جمهرة الامثال لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وجمع الامثال لأبي الفضل الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ وهو أنظمها وأوفاهما فقيه أكثر من

ستة آلاف مثل رتبت على حروف المعجم وفي آخر كل باب منها ما جاء على
أفعل للعرب ثم للمولدين وهذا بعض من كل نوع

الامثال الحقيقية

١ — تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها . يضرب في صيانة الشخص نفسه
عن خسيس الكسب وهو للحارث بن سليل الاسدي يقوله لامرأة
تزوجها على كبر منه وهي شابة فلما بنى بها بكت فقال المثل
وطلقها .

٢ — الحديث ذو شجون . يضرب للقول يجر بعضه بعضا وقائله
أد بن طابخة

٣ — سبق السيف العذل . يضرب للفائت يستحيل تداركه وقائله ضبة
ابن أد بن طابخة

٤ — ما يوم حليلة بسر . يضرب في كل أمر متعارف مشهور وقائلته
حليلة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني وكان أبوها وجه جيشا
الى المنذر بن ماء السماء الذي فآخر جت للجنود طيبا طيبتهم به وكان يوما
مشهودا فقات المثل

٥ — قطعت جهيزة قول كل خطيب . يضرب لمن يقطع على الناس ما هم
فيه بحمافة يأتي بها وسببه أن قوما اجتمعوا يخطبون في صالح بين
حين قتل أحدهما من الآخر قتيلا ويسألون الرضا بالدية وبينهم
في ذلك جاءت أمة يقال لها جهيزة قائلة (إن القاتل قد ظفر به بعض
أولياء المقتول فقتله) فقالوا عند ذلك هذا المثل .

٦ — إن أخاك من وإساك . يضرب في الحث على مراعاة الاخوان وقائله
خريم بن نوفل الهمداني .

٧ — ان العوان لا تعلم الخمرة . يضرب للعالم بالامر المجرب له والعوان المرأة النصف بين الفارض والبكر والخمرة هيئة الاختمار وهو لبس الخمار

٨ — ان خيرا من الخير فاعله وان شرا من الشر فاعله : يضرب في الحث على فعل الخير والبعد عن الشر وقد ورد على لسان واعظ لعمره ابن هند

٩ — ان غدا لناظره قريب . يضرب في الامر يرجي قرب وقوعه وقائله قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر حين قال له ما أراك الاها الكا غدا فقال المثل

١٠—١٩ هذا وقد تستتبع الحادثة الواحدة ضرب أمثال عدة ومن أجمع الحوادث في ذلك ما رووه في أصل المثل (ثكل أرامها ولدا) من أن رجلا يقال له بيهس كان سابع سبعة إخوة فأغار عليهم ناس بينهم وبينهم حرب في ابل لهم فتتلوهم الا بيهس هذا تركوه لانه كان يحمق وكان أصغرهم ولم يشاءوا أن يحسب عليهم رجلا ثم انهم نحروا جزورا وكان اليوم قائظا فقالوا ظللوا للحكم لا يفسد فقال بيهس (لكن بالاثلاث لحم لا يظلل) فذهبت مثلا ولما أخذوا يشوون ويا كلون قال أحدهم ما أطيب يومنا هذا وأخصبه فقال بيهس (لكن على بلدح قوم عجفي) فذهبت مثلا ثم أتى بيهس أمه فأخبرها الخبر فقالت وما أتى بك من بين اخوتك فقال (لو خبرت لا خرت) فأرسلوا مثلا ولما أخذت أمه تعطف عليه وترق له قال الناس لقد أحبت أم بيهس بيهسا فقال (ثكل أرامها ولدا) فذهبت مثلا ثم ان أمه أخذت تلبسه ثياب اخوته فيلبسها ويقول

(حبذا التراث لولا الذلة) وهذا مثل أيضا وحدث أنه مر على نسوة يصلحن عروسا لاهدائها إلى بعض قتلة إخوته فرفع ثوبه حتى غطى رأسه فقلن له ويحك ما تصنع يا بيهس فقال (البس لكل حالة لبوسها إمانعهم وأما بوسها) فذهبت مثلاً ثم انه جلس مرة يأكل وحده ويقول (حبذا كثرة الايدي في غير طعام) فأرسلها مثلاً وقالت أمه لا يطلب هذا بثأراً أبداً فقالت لها امرأة سمعتها (لا تأمني الاحق وفي يده سكين) فذهبت مثلاً ثم انه علم أن أناسا من أشجع ومنها قتلة إخوته في غار فجاء إلى خال له يدعى أبا حنش فقال له (هل لك في غنيمة بارده) فأرسلها مثلاً ثم انطلقا حتى اذا كان على باب الغار دفع بخاله وقال ضربا أبا حنش فقال من في الغار ان أبا حنش لبطل فقال أبا حنش (مكره أخاك لا بطل) فذهبت مثلاً كان العاشر في هذه الحادثة

الامثال القرصية

١ — كيف أعادوك وهذا أثر فأسك . تزعمه العرب على لسان حية كانت في واد فنهشت رجلا فقتلته فذهب أخوه ليقبض منها فعاذته على أن يتركها وتعطيه كل يوم ديناراً ومكثا على ذلك دهراً ولما أثارى الرجل ذكر أخاه وصمم على قتل الحية واكتنه لما ضربها بفأسه أخطأها وأثرت الفأس في باب جحرها ثم انها قطعت عنه الدينار فندم فقال لها هل لك في أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه فقالت (كيف أعادوك وهذا أثر فأسك) فذهبت مثلاً يضرب لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره

٢ — انما أكلت يوم أكل الثور الأبيض . يروى على لسان ثور من ثلاثة أبيض وأسود وأحمر كن في أجمة ومعين فيها أسد لا يقدر على أحد منهم لاجتماعهم فقال يوما للأسود والأحمر لو تركتاني أكل الأبيض لصفت لنا الأجمة لأن لونه مشهور يدل علينا فقالا دونك فكله فأكله

وبعد أيام قال للأحمر لوني لونك فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الالجمة
فقال دونك فكله فأكله حتى إذا كانت أيام آخر قال للأحمر اني آكلك
لأحالة فقال ولكن دعني أنادي ثلاثا قال افعل فنأدى (إنما أكلت يوم
أكل الثور الأبيض) فأرسلها مثلاً يضرب لمن يسلم في أعوانه فيكون في
هذا التسام هلاكه

١١-٣ هذا ومن الحوادث الفرضية ما يستدعي صدور جملة أمثال كما تقدم في
الحقيقة ومن ذلك ما ترجمه العرب من أن أربنا التقطت ثمرة فاختلسها
الشعب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب فقالت الأربن يا أبا الحسل قال (سميعا
دعوت) قالت أتيئك لنختصم اليك قال (عادلا حكما) قالت فاخرج
الينا قال (في بيته يؤتي الحكم) قالت اني وجدت ثمرة قال (حلوة فكلوها)
قالت فاختلسها الشعب قال (لنفسه بغى الخير) قالت فلطمته قال (بحقك
أخذت) قالت فلطمني قال (حر انتصر) قالت فاقض بيننا قال (قد
قضيت) ثم قال (حدث حديثين امرأة فان لم تفهم فأربعة) فهذه تسعة
أمثال على لسان الضب يضرب كل منها في مثل ما قيل لأجله وهي
مروية في مضرب المثل (في بيته يؤتي الحكم) وفي هذا القدر من
الامثال كفايه

٢ - المفاخرات والمنافرات

المفاخرة كلام يجري بين اثنين أو أكثر أو على انفراد تمدحاً بالخصال
ومباهاة بالاصول وكان للعرب بها ولع شديد وافتنان كبير لانهم كانوا قبائل
وطبونا بينهم من التناحر والتنازع ما أجج فيهم نيران الحروب وجعل كلاً على
تمام علم بما آثره ومخازي سواه فتناوهم النزوع إلى المفاخرة من القمة إلى القاع

فما بينهم وبين غيرهم من الاعم كالفرس والروم وبين أنفسهم في يمن
ونزار ثم في ربيعة ومضر وفي بكر وتغلب من ربيعة وقيس وتميم من مضر
وكذلك بين قبائل اليمن بعضها وبعض وهكذا لم يزل يتغلغل التفاخر في بطونهم
وأفخاذهم حتى تناول ابني العم في العشيرة الواحدة فكان على أشده وفي منتهاه.
وكانت المفاخرة نوعا متميزا من أنواع المنثور وكالمفاخرة المنافرة وهي مثلها
وأشد في هذا الباب كان الرجلان إذا تنازعا الفخر وادعى كلاهما الفوق على
صاحبه نفرا إلى حاكم يرضيانه ليقضى بينهما فمن فضله على صاحبه كان
له غم الحكم وعلى صاحبه غم الجعل المفروض من الابل أو غيرها وكلا
النوعين كثير الامثلة والوقائع

فمن المفاخرة ما روى من أن كسرى قال للنعمان بن المنذر يوما هل في العرب
قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال فبأي شيء قال من كانت له ثلاثة آباء متواليه
رؤساء ثم اتصل بكمال الرابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب اليه قال فاطلب ذلك فطلبه فلم
يصبه إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وآل حاجب بن زرارة التميمي وآل بسطام
ابن قيس الشيباني وآل الاشعث بن قيس الكندي فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من
عشائره عند كسرى وقال ليتكلم كل رجل منكم بما أثر قومه وليصدق فكان
حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم وكان ألسن القوم فقال قد علمت العرب
أن فينا الشرف الاقدم والعز الاعظم وما أثر للصنيع الاكرم فقال من حوله
ولم ذاك يا أخا فزاره قال ألسنا الدعائم التي لا ترام والعز الذي لا يضام قيل له
صدقت ثم قام الاشعث بن قيس قبل ربيعة وتميم لقرا بته من النعمان فقال قد علمت
العرب أنا نقاتل عديدها الاكثر وزحفها الاكبر وأنا غياث الكربات ومعدن
المكرمات فقالوا ولم يا أخا كندة قال لانا ورثنا ملك كندة فاستظلمنا بأفياثه

وتقلدنا منكبه الاعظم وتوسطنا بحبوحه الاكرم. ثم قام بسطام بن قيس فقال
قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذي لا يزول ومغرس عزها الذي لا يحول قالوا
ولم يا أخا شيبان قال لا أنا أدركهم للشار وأضر بهم للملك الجبار وأقومهم للحكم
وألدهم للخصم. ثم قام حاجب بن زرارة فقال قد علمت العرب أنا فرع دعامتها
وقادة زحفها قالوا ولم يا أخا تميم قال لا أنا أكثر الناس عديدا وأنجبهم طراوليدا
وأنا أعطاهم للجزيل وأحملهم للثقل وبعدئذ قام قيس بن عاصم السعدي فقال لقد
علم هؤلاء أنا أرفعهم في المسكرات دعائم وأثبتهم في النائبات مقادير قالوا ولم
يا أخا سعد قال لا أنا أدركهم للشار وأمنعهم للجار وأنا لا ننكل إذا حملنا ولا
نرام إذا حللنا. فقال كسرى حينئذ: - ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه وأسنى
حباءهم وأكرم ما بهم

ومن المنافرة ما كان بين خالد بن مالك النهشلي والقعقاع بن معبد بن زرارة
التميمي فقد تنافرا إلى أكرم بن صيفي أيهما أكرم وجعل بينهما مائة من الابل
تكون على المفضول فطاب اليهما أكرم أن يرجعا عما جاءا اليه فأيا فكره أن
يحكم بينهما واسكنه حبس الابل وبعث بهما إلى ربيعة بن حذار الأسدي
ليقضى بينهما فلما قدما عليه وأخبراه بما جاءا من أجله قال هاتيا مكارمكما
فقال خالد أعطيت من سأل وأطعمت من أكل ونصبت قدوري حين وضعت
السماك ذيولها وطعنت يوم شواحط فارسا فجالت فيخذه بفرسه فقال وما عندك
ياقعقاع فأخرج قوس حاجب بن زرارة وقال هذه قوس عمي حاجب رهنها
عن العرب ووفي بها وهاتان نعلا جدي زرارة قسم فيهما أربعين مرباطا وهذا
زريه لم ير ناره خائف إلا أمن ولم يمك بطنب فسطاطه أسير الافك فنادى
ربيعة بن حذار إن الساحة واللهي والمربع والشرف الاسبع للقعقاع ألا اني
نقرت من كان ابوه معبدا وعمه حاجبا وجده زرارة

هذا وكثير ما كان يعمد الحكم الى الصالح بين المتنافرين تفاديا للشر وحسما
للخلاف فيقع كلامه فيهما من أروع الخطب في الدعوة الى السلام والاعتصام
بجبل المودة والوئام ومن ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف في خزاعة
وقريش حين نفرتا اليه فقد خطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة قال :-

أيها الناس نحن آل ابراهيم وذرية اسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو
قصي بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم . لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن
المجد ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته الا مادما الى عقوق
عشيرة وقطع رحم

يا بني قصي أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه والسيف
لا يصبان إلا بغمده ورامى العشيرة يصيبه سهمه ومن أمحكه اللجاج أخرجه
إلى البغى .

أيها الناس الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجود سؤدد والجهل
سفه والايام دول والدهر غير والمرء منسوب إلى فعله وما خوذ بعمله فاصطنعوا
المعروف تكسبوا الحمد ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء واكرموا الجليس يعمر
ناديكم وحابوا الخليط يرغب في جواركم وأنصفوا من أنفسم يوثق بكم .
وعليكم بمكارم الاخلاق فانها رفعة واياكم والاخلاق الدنية فانها تضع الشرف
وتهدم المجد وإن نهمة الجاهل أهون من حزيرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها
ومقام الحليم عظة لمن انتفع به

فقالوا رضينا بك أبا نضلة وكانت كنيته وتصالها

ومما يذكر عن هاشم بن عبد مناف في المنافرة أن أمية بن عبد شمس لما
حسده مكانته في قريش طلب منافرته فكره ذلك ولا مكن قريشا . أكرهته
عليها فتنافرا إلى أحد كهان خزاعة على خمسين ناقة سوداء تنحر بمكة وعلى
الجلاء منها عشر سنين فلما نزلوا على الكاهن ابتدرها بقوله . والقمر الباهر

والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر
من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر فقال أمية من انتكاث الزمان
أن جعلناك حكما فقال له تنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة
وأحسن منك وسامة وأقل منك لامة وأكثر منك ولدا وأجزل منك صفدا
ونقرها شما فأخذ هاشم الابل فتحرها وأطعم وخرج أمية إلى الشام فقضى
بها الاجل المضروب. ويذكر المؤرخون أن هذه المنافرة كانت بمثابة التسجيل
لما كان من عداوة راسخة بين أمية وهاشم ورثها عنهما بعد الابناء والاحفاد

٣ - الخطب والوصايا

منشأ الخطابة . أغراضها . تأثيرها . منزلتها

تفرقت العرب في باديتها المترامية الاطراف الواسعة الاكناف قبائل متشعبة
تمسك كل منها بهصبيتها ونعرتها وتحرص على عزتها وكرامتها وتنقاد إلى
رئيس هو ملاك أمرها وقوام شأنها ترى فيه رمزا نفتها وعنوان مجدها وتختاره
من أكرم العناصر فيها وأقدرهم على التفاهم معها حتى يكون قلبها نابض ولسانها
الناطق يهيب بهم في كل حادث ويجمعهم لكل خطب فيكون له كلام ومنهم
استماع . ومن ثم كان من ألزم سمات الرئيس وأظهر الصفات فيه مقدرته على
القول وتملكه زمام البيان فنشأت الخطابة سليقة في الرؤساء ونبغ فيهم من

مصارع الخطباء الجم الغفير حتى كان لكل قبيلة خطيب

فالخطابة اذن وليدة حاجة العرب الطبيعية ونظام عيشهم الاجتماعي ولقد
رفع من شأنها فوق ذلك كثرة الدواعي اليها وانتشار الامية بينهم حتى كانت
وحدها مفزعهم واليها إذ لا كتابة مرجعهم

فبها كانوا يحرضون على القتال وشن الغارات والاخذ بالثأر وبث الحمية
في النفوس وتحبيب الموت إلى الجبان في بيئة تتطلب منهم ذلك كل وقت وأن.
وبها كانوا يدعون إلى السلم كلما اكتوبروا بنار الحرب فلا يزال خطيبهم يفيض
في أضرار القتال ومنافع السلام حتى ينزع ما في صدورهم من غل ويستل ما
بنفوسهم من حقد فاذا هم قد أخذوا إلى السكون وعادوا اخوانا وادعين ولو
إلى حين

وبها كانوا يتآمرون بالمعروف إذا نصب معينه ويتناهون عن المنكر إذا
زخر تياره فيحجبون في الخير ويغضون في الشر ويوصون باقتناء المحامد والتخلق
بالمكارم. وكثير من خطبائهم كان دأبه العظة والاعتبار وهم التذكير والانابة
ليخلص النفوس من أرجاسها ويظهر القلوب من أدرانها
وبها كان تفاخرهم بالاحساب والانساب وتكاثرهم بالاموال والأولاد
وتباهيهم بالمقدرة على الكلام لمجرد الكلام والدلالة على فوقهم في الفصاحة والبيان
في كثير من المجامع والاسواق

وبها كانوا يؤدون واجب السفارات بين بعضهم وبعض أو بينهم وبين
مجاورهم في الاشياء العامة من تأمين سبيل أو إجارة تجارة أو تهينة أو تعزية
فلا يزالون يختارون للسفارة أغنائهم ببيان وأوضحهم برهانا وأحضرهم بديهة
وأقواهم ارتجالا مسوقين في ذلك بحكم أميتهم وتعذر طرق الوصلة ببلادهم
مما لم يدع للكتابة مجالا عندهم

على أن من أغراض الخطابة فوق ما تقدم ما كان في الاملاك من خطب
تلقى لربط أواصر المصاهرة بين العشائر وتحبيب الخطوب اليهم في الخطوب لهم
بذكر فضائل الآخرين وأنهم للاولين أهل وأكفاء

ولما كانت أغراض الخطابة على ماسلف ذات اتصال وثيق بحياة العرب
وفي المكانة السامية من نفوسهم كان الخطباء يحفلون بخطبهم ويقبلون عليها من
كل نفوسهم فيمتخرون لها من المعاني أشرفها ومن الالفاظ أفصحها لتكون
أشد وقعاً على النفوس وأبعد تأثيراً في القلوب وأيقظ للهمم وأحث على العمل
فإن الأذن للكلام البليغ أصغى والطبع إلى المعنى الشريف أميل والكلام إذا
صب في قالب من البلاغة محكم الصوغ جذاب الشكل عظم اقبال السامعين على
ما يرغب فيه الخطيب إن كان يحب واشتد نفارهم عما يرغب عنه إن كان
يحذر ولو كانوا قبل استماعه على غير ما يريد وليس ذلك بالمبالغ فيه فإن من
البيان لسحراً

ثم لم يفت الخطباء أن يتعدوا في خطبهم كل ما يفخمن من هذا التأثير ويزيد
في شدته كأن يقف الخطيب على شرف من الأرض حسن الزى مخصوص
العمامة معتمداً على قوسه بيساره وفي يمينه عصاه وأن يكون جهير الصوت حسن
الايقاع صائب الإشارة تام الوقار إلى غير ذلك مما يبالغ بالخطابة غايتها من
نفوس السامعين وبالقول نهايته في قلوب الشاهدين

وإن كان للخطابة على حاجة العرب إليها وقصرها على السادة الأشراف
منهم تلك الأغراض في نبيلها وهذا التأثير في قوته فلا غرو أن كانت منزلتها
أشرف دنزلة ومكانتها أسمى مكانة وأن كان الخطيب في كل قبيلة المرجع الذي
إليه يرجعون وعنه يصدرن لما أمدته به رياسته وهداه إليه بيانه وهل لذي
رياسة ما غنى عن قول ونزوع عن بيان فما بالنا إذا كان في بداوة ليس فيها ما قد
يفنى الحضري عن الكلام وفيها ما يدعوه هو إلى أن يقول ويطيل وهل لغير
ذلك كان الرسل عليهم السلام مقاول خطباء ولا مرما غير هذا قل جل شأنه
عن لسان موسى عليه السلام « وأخى هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي

ردءا يصدقنى إني أخاف أن يكذبون »

وكان الخطيب الوصايا إلا أن الخطيب أوسع دائرة وأبعد مدى فهى للمشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتنافر ومن الوفود فى كل مهم لدى الملوك والائمرء والسادة والكبراء بينما الوصايا لا تعدو قوما مخصوصين فى أمر مخصوص كأن تصدر من سيد لعشيرته أو أب لبنية أو امرأة لابنتها أو أكثر ما تكون عند الاحساس بدنو أجل أو توقع فرقه. وهذى نماذج للنوعين فى كل ما ذكر من أغراض

فمن خطب التحريض على القتال والثبات فى الميدان خبطة هانىء بن قبيصة الشيباني فى قومه بكر يوم ذى قار وقد تقدمت فى الايام

ومن خطب الدعوة إلى الصلح والجنوح للسلم خطبة هاشم بن عبد مناف فى خزاعة وقريش حين تنافرتا إليه وقد تقدمت فى المنافرات وهى بهينها شاهد على خطب التأمر بالمعروف والتناهى عن المنكر

ومن خطب العظة والاعتبار خطبة المأمون الحارثى فى نادى قومه وهى كما رواها صاحب الامالى عن جماعة آخرهم أبو عبيدة قال :

قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم أفكر طويلا ثم قال :

أرعونى أسماعكم وأصغوا إلى قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد طمح بالاهواء الاشر وران على القلوب الكدر وطخطخ الجمل النظر إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر . أرض موضوعة وسماء مرفوعة . وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتعزب . وقمر تطلع والنحور وتمحقه أدبار الشهور . وعاجز دثر وحول مكد وشاب مختضر ويفن قد غبره وراحلون لا يؤوبون وموقوفون

لا يفرطون . ومطر يرسل بقدر فيحيي البشر ويورق الشجر ويطالع الثمر وينبت
الزهر . وماء يتفجر من الصخر الأير فيصعد المدر عن أفنان الخضر فيحيي
الأشنام ويشبع السوام وينمي الأنعام . إن في ذلك لاوضح الدلائل على
المدير المقدر البارئ المصور . يأبى العقول النافرة والقلوب النائرة أني توفكون وعن
أى سبيل تعمهون وفي أى حيرة تهيمون وإلى أى غاية توفضون . لو كشفت
الاعطية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين وأفاق
من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة

ومن خطب التماخر ما تقدم في المفاخرات لبيوتات العرب ومن طواها
خطبة النعمان بن المنذر عند كسرى وعنده وفود الأمم الأخرى وقد فضلهم
على العرب ومثلها خطب الوفد الذى بعث إليه عقب ذلك وكلها بالعقد الفريد
لابن عبدربه

ومن خطب السفارات خطبة عبد الملك بن هاشم في وفد قريش إلى سيف
ابن ذى يزن باليمن حين ظفر بالحبشة وأتت إليه وفود العرب لتهنئته ومدحه قال : —
ان الله أحلك أيها الملك محلا رفيعا صعبا منيعا شامحا باذخا وأنبئك منبتا
طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبسق فرعته في أكرم موطن
وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى ينصب به وأنت
أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد وعمودها الذى عليه العماد ومعقلها الذى
تلتجأ إليه العباد . سلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خالف فان يحمل ذكر
من أنت سلفه ولن يهلك من أنت خلقه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة
بيته أشخصنا إليك الذى أبهجنا لا تكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفدا لتهنئة
لا وفد المرزئة

ومن خطب الاملاك خطبة أبي طالب بن عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في تزوجه خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها وهي من أقصد خطب الجاهلية قال : —

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكم على الناس . ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا . وان كان في المال قل فانما المال ظل زائل وعاريه مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أحبيتم من الصداق فعلى

ومن وصايا السادة لعشائريهم وصاة اكرم بن صيفي التميمي لقومه قال : —

يا بني تميم لا يفوتنكم وعظي ان فاتكم الدهر بنفسي . ان بين حيزومي وصدري لكلاما لا أجد له مواقع إلا اسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغيبته . الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول والنفس مهملة والروية مقيدة ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ولن يعدم المشاور مرشدا والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزال ومن سمع سمع به ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ولواعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا مقائل الكرام وعلى الاعتبار طريق الرشاد ومن سلك الجدد أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤثر غيظه ولا يتجاوز مضرته نفسه . يا بني تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم وكلم اللسان أنكى من كالم السنان والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم فاذا نجمت فهي أسد محرب أو نار تلهب ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجوز . ونفاد الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب

ومنها أيضا وصاة عامر بن الظرب العدواني الذي تقدمت الإشارة اليه مع
أكرم إذ قال له قومه وقد خشوا موته . إنك سيدنا وقائلنا وشريفنا فاجعل لنا شريفا
وسيدا وقائلا فقال .

يا معشر عدوان كلتموني بغيا ان كنتم شرفتموني فاني أريتكم ذلك من
نفسى فاني لكم مثلى . افهموا ما أقول لكم .

إن من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له وكان الباطل أولى به وإن الحق
لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق .

يا معشر عدوان — لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش
الفقير مع الغنى . ومن يُرّ يوما يُرّ به . وأعدوا لكل أمر جوابه . إن مع السفاهة
الندامة والعقوبة نكال وفيها ذمامة . ولليد العليا العاقبة . والقود راحة لا عليك
ولالك . وإذا شئت وجدت مثلك . إن عليك كما أن لك . وللكثرة الرعب وللصبر الغلبة .
ومن طلب شيئا وجدّه وان لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه .

ومن وصايا الآباء للابناء وصاة ذى الاصبع العدواني حين احتضر لابنه
أسيد قال :-

يا بني إن أبالك قد فنى وهو حى وعاش حى سُم العيش واني موصيك بما
إن حفظته بلغت فى قودك ما بلغت فاحفظ عني . ألن جانبك لقودك يحبوك
وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشيء
يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك
صغارهم واسمح بمالك واحم حريمك وأعزز جارك وأعن من استعان بك
وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصريح فان لك أجلا لا يعدوك وصن
وجهك عن مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سؤدوك

ومن وصايا النساء لبناتهن ما ذكره الميداني عن المفضل الضبي في المثل
«ما وراءك يا عصام» ولن نروى منه إلا محل الاستشهاد قال :

لما أرادوا أن يحملوا ابنة عوف بن محم الشيباني الى زوجها الحارث بن عمرو
ملك كندة قالت لها أمها توصيها : —

أى بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ولا كنهها
تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها
وشدة حاجتهما اليها كنت أغني الناس عنه ولا يكن النساء للرجال خلقن ولهن
خلق الرجال. أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش
الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فأصبح بما لك عليك رقيبا
ومليكا فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا . يا بنية احملى عني عشر خصال
تكن لك ذخرا وذكرا الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة. والتعهد
لموقع عينه والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عينه منك علي قبيح ولا يشم منك الا
أطيب ريح والسكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود . والتعهد
لوقت طعامه والهدوء عنه عند منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم
مغضبة. والاحتفاظ ببيته وماله والارعاء على نفسه وحشمه وعياله فان الاحتفاظ
بالمال حسن التدبير والارعاء على الحشم والعيال جميل حسن التقدير. ولا تقش
له سرا ولا تعصى له أمرا فانك ان أفشيت سره لم تأمنى غدره وان عصيت
أمره أو غرت صدره . ثم اتقى مع ذلك الفرح ان كان ترحا والا ككتاب عنده
ان كان فرحا فان الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير . وكوني
أشد ما تكونين له اعظما يكن أشد ما يكون لك اكرا ما وأشد ما تكونين له

موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة . واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتحبين
حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحبت وكرهت والله
مخبرك

هذا وكتب الادب ملائي بأخبار الخطباء والحكماء والموصين وضاربي
الامثال وذوى الاسجاع من الكهنة والعرافين ولا محل هنا للمزيد عما سقناه
ففيه الغناء لما أردنا من نماذج على سبيل التمثيل لأنواع النثر وأقسامه في آن.

الشعر الجاهلي

١ — أولية الشعر عامة ولدى العرب خاصة

ليس للشعر باعتباره تلك المعاني المؤثرة التي تتصل بالشعور وتعبر عن خليجات النفوس وتنساق لهوى الغرائز والميول أولية تعرف فانه بهذا المعنى يكاد يكون مخلوقا مع الانسان منذ أن هبط الى هذا الوجود مجموعة غرائز فطرية يخضع لها في كل أعماله خضوعا لا يحد منه عقل ولا يقف في سبيله فكل لان التعقل والتفكير لم يوجد إلا بعد حقب طال أمدها اكتسب الانسان خلالها من التجارب ما أوجد له عقلا بجوار الغريزة فصارت إرادته مرتكزة عليه بعد أن كانت مسخرة دون تفكير للغرائز الخافزة والميول الدافعة . ولكن ليس مما يسيغه عقل ولا تسمح به سنة أن تكون تلك المعاني قد ظهرت أول ما ظهرت فيما نسميه شعرا بالمعنى الاصطلاحي أي في قوالب محدودة من الأوزان والقوافي فإن هذه القوالب في كل اللغات أثر من آثار حضارتها والحضارة لا يمكن أن تكون إلا بعد قرون طويلة تقطعها اللغة منذ نشأتها الى حيث تظهر بها أمثال هذه الآثار .

فالمعاني الشعرية وجدت حيث وجدت مطلقة الاسلوب من كل قيد وأخذت في التدوج الى أن بلغت الغاية التي نرى من قيود ثم جهلت هذه الخطوات الاولى كما جهلت سائر أوائل الاشياء . على أن العقل يكاد يجزم في لغتنا العربية أن أول خطوة خطاها شعرها كانت متمثلة في الاسجاع وبعدها كان تساوي الفواصل فيها ثم خضوع هذا التساوي شيئا فشيئا لاقيسة التفاعيل وبذلك

تحقق الوزن في البيت الواحد مع اتحاد الحرف الاخير في الشطرين كما نراه في منظومات العلوم والفنون وهذا أهون أنواع الشعر . وتلا هذه الحالة التقيد بحرف القافية في الاعجاز مع التحمل منه في الصدور وفي خلال ذلك وعلى توالي القرون تنوعت الاوزان وطالت القوافي وبلغ الاقتدار على التقيد مداه حتى وصل الى الارجيز وهي أصعب أنواع الشعر . ومن هذا يفهم أن الشعر العربي لا بد له في معناه من التأثير المعتمد على الشعور وفي لفظه من التقيد بالوزن والقافية . واذا ما خلا من هذين معاً أو من أحدهما سمي نثراً فحسب أو نثراً شعرباً أو نظماً لا شعراً . فالشعر على اطلاقه هو ما عطينا وعلى هذا القصد ذكرنا ما ذكرنا آنفاً من أن النثر أسبق منه الى الوجود .

ولما كان المعنى الشعري فطرياً تهدي اليه الطبيعة البشرية إذ لا بد منه للانسان في التسرى عن نفسه وقت الشدة والتسلى به حين الوحدة ظهر الشعر على ألسنة الامم جمعاء ولم تختص به أمة دون أخرى ولكنها لم تكن فيه سواء فكانت أكثرهن فيه قولاً أصلحها له بيئة وأوفقها له لغة . ومن ثم كانت العرب في جاهليتها من أقدر الشعوب عليه إن لم تكن أقدرها جميعاً فقد قالته رجالاً ونساء شبانا وشيباً سادة وسواداً ولم يعدم أقلهم فيه شأننا الايات يقدمها في حاجته أو يعبر بها عن معنى في نفسه وان لم يك من الملقبين بالشعراء لأن طبيعة العيش البدوي تهدي الى الشعر وتدعو الى الغناء به .

فمن حياة بسيطة ساذجة لا شيء فيها يطغى على الفطرة أو يमित الوجدان بل كل ما فيها ينميهما ويزيد من قوتها . فالسماء صافية الرقعة متألفة الكواكب والارض منبسطة الاديم لامعة الرمال متصلة بالعائش فيها تمام الاتصال متجلية له بكل ما عليها من حيوان ونبات . الى رحلة طويلة دائمة لا يفارق العربي فيها راحته فلا يزال يسوقها وهي تقطع المفاوز والقفار بتلك الحركة

المرقصة كارجوحة الطفل لا تكاد اليد تهزها حتى ينطلق اللسان فيغنيها . كذلك هو انطلق لسانه لراحلته فلم يزل يحدوها بألحان الشعر ويرفع من ورائها عقيرته بأهازيج . ولقد قالوا إن أول ما نشأ من الاوزان الرجز وما الرجز إلا قياس رسمه في مخيلة العرب سير الابل في الصحراء ففاض الشعر على ألسنتهم أول ما فاض بألفاظ هي وتفاعيل الرجز في الوقع سواء .

تهيأت للعرب إذن مذ كانت العرب دواعي الشعر بما تهيأ لهم من سلامة فطرة وملاءمة بيئة ثم كنف عيشهم ما كنفه من ضنك ومشقة وتفرد وعزلة فهرعوا اليه يتخذونه لدى الشدائد عوناً وفي الوحدة أنيساً حتى كان لحنهم وهجيرهم شأن ذوى الاعمال المتعبة والخلوة الموحشة لا غنى لهم عن الغناء به ولا محيص . ولقد ذل من مطاوعته لهم حتى صار سلسبيلاً جارياً تلك اللغة الذلول ذات الغنى الكبير في مفرداتها ومرادفاتها والتصرف الاكبر في أساليبها وتراكيبها فنبغوا فيه نبوغاً عدد من أوزانه وأطال في قوافيه وجعله في هذين الامرين ذا منزلة لم يدانه فيها سواه ، وأنى لغيره تلك المدانة دون أن تهيأ لغته في مفرداتها وأسلوبها لما تهيأت له لغة الضاد في التصرف البعيد البديع الذي مكّن لذوى الصنعة اللفظية من الاتيان بأشياء لولاه كانت من المعجزات . وفي مقامات الحريرى من هذا الضرب فنون وألوان ، فمن مقامة تتضمن رسالة إحدى كلماتها معجمة والاخرى مهملة الى مقامة تتضمن أخرى كل كلمة فيها أحد حروفها معجم والاخر مهملة الى مقامة تتضمن رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه الى مقامة تتضمن عبارات تقرأ طرداً ورداً فلا يغيرها عكس حروفها الى غير هذا مما ليس له نظير ولا شبيه في أية لغة أخرى . (وكما كانت العرب في جاهليتها ذات قدرة على الشعر فائقة وشاملة معاً) كذلك كانت من أقدم الأمم المعروفة به . فأولية الشعر عندها تكاد ترجع الى

أوليتها وهي أمة قديمة العهد ذات صلة بفجر التاريخ. غير أن بدواتها وأميتها حالها بينها وبين تدوينه بنقش على أثر أو كتب في كتاب ، فلم يك لها حياله إلا تلميحه بالحفظ والادكار فأخذ يطوى بطي الحقب ويذهب بذهاب الحفظة وهيمات للحفظ وحده أن يبقى معه مآثور على تلك القرون الطوال . لذلك كان الضياع حليف الشعر الجاهلي فلم يسلم لنا منه وراء قرنين قبل الهجرة شيء كما لم يسلم منه في هذين القرنين بالنسبة لما ضاع إلا القليل .

وأول مآثور عرف كان في قبائل ربيعة بنجد والعراق وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس ومن أقدم شعرائها ويقال إنه أول من قصد القصيد والصواب أول من عرف له القصيد الملهل وهو عدي بن ربيعة التغلبي أخو كليب الذي هاجت بمقتله بين القبيلتين السالفتين الحرب السابقة فكان لها في إذكاء الشعر بريعة الاثر الكبير . ثم تحول الى قيس عيلان وكانت شعوبها تملأ نجداً وأعالى الحجاز . ومن قبائلها عيس وذيبيان وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء وتناولات معهما الكثير فكان لها من إذكاء الشعر في قيس ما كان في ربيعة لحرب البسوس . ومن قيس انتقل الى تميم وتميم مسعر الحروب فاستقر فيها وكانت أول نشوئها في تهامة ثم نزحت الى شرقي نجد وبادية العراق . ولم يظهر في مدركة إلا في بطون سكنت البادية منها كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش وبهذا غلب الشعر على أكثر أهل البادية من مضر وريبعة كما غلب على من ساكنهم بها من نازحي قبائل اليمن القدماء كطي وكندة وغيرهما مما تقدم بيانه في القبائل والبطون ، أما الحواضر فكانت قليلة في ذاتها وكذلك كانت قليلة الشعراء .

وإذا قلنا إن الشعر كان أقدم مما أثر منه بكثير فانا نستند في قولنا هذا الى العقل والى المآثور ، فأما الى العقل فلا نه يأبى على الشعر الالباء كله أن يظهر

طفرة بذلك المظهر الذى كان عليه أيام حرب البسوس ، وما قصائد مهلهل في وصف تلك الحرب وفي رثاء كليب أخيه إلا نتيجة حقبة طويلة درج فيها الشعر حتى تم صقاله وتعددت أوزانه واستطالت قوافيه ولا بد أن تكون تلك القصائد مسبوقة بأمثالها في العهد القريب وبشبهات لها في البعيد ، وهكذا القهقرى الى عهود سحيقة كان الشعر فيها في صور المقطعات الصغار . وأما الى المأثور فلا نرى في أقدم الشعراء المروى عنهم من يقول وهو امرؤ القيس

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن حذام

وابن حذام أقدم من امرئ القيس ولم يصل إلينا من شعره شيء ولا بد أن يكون قد وقف على الاطلال وبكى الديار كما يريد أن يقف ويبكى امرؤ القيس ثم لا بد أن تكون له قصائد افتتحها بالوقوف والبكاء وصرف القول فيها بعد الى غير ذلك من الاغراض بهذا كان يدين الشعراء كما مرىء القيس للقدماء ألا ترى الى عنزة يفتتح معلقته فيقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرف الدار بعد توهم

فنحن اذا انحزنا في دراسة الشعر الجاهلى الى القرنين السابقين للاسلام نفعل ذلك مضطرين لا نقطاع الرواية الصحيحة عما قبل هذا التاريخ لان ماروى منه أقرب الى الوضع والاختلاق ، ومن العبث التعرض له بكلام فقد أفرط القصاصون في التوغل بالشعر الى القديم حتى أوصلوه الى العرب البائدة فذهبوا اليها منه الكثير فيما ذكروه عنها من أساطير ناسين أنهم روه بلغة مضر قبيل الاسلام ومحال أن تتحد ولغة عاد ، على أن ذلك ليس بالغريب عليهم وقد نسبوا الشعر الى آدم وأولاده والى الجن والملائكة والشیاطين .

تلك نبعة الشعر عامة ولدى العرب خاصة وإنا لسائقو القول بعدها على الشعر الجاهلى من حيث طبيعته وفنونه ، تسجيله كثيرا من أحوال العرب ، تأثيره ومنزلة رجاله ، طبقات الشعراء ومنزلة اصحاب المعلقات فيهم مع السبب في تسميتها بهذا الاسم ثم منزلة المعلقات نفسها منه إن شاء الله .

٢ — طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه

نرانا مضطرين قبل التكلم في طبيعة الشعر الجاهلي أن نسوق القول عاما في طبائع الشعر القديم كلة حتى يمكن أن نرجع الشعر المذكور الى الطبيعة التي تلاءمه والتي اليها ينتمى

١٤ فان من الشعر ما هو قصصى ينصرف الى القصص فيذكر الحروب والابطال ولكنه لا يقتصر في ذكرها عليهما بل يمزج بهما مناداة الالهة واستيحاءها فهو شعر اجتماعي تفنى فيه شخصية الشاعر الى حيث لا يراها الانسان ثم هو في لفظه طويل بالغ في الطول تصل القصيدة الواحدة منه الى آلاف من الابيات دون أن تتقيد بلون واحد من الوزن والتقفية ، وكثيرا ما تعتمد في انشادها على الموسيقى / وهذا النوع من الشعر يلائم كل أمة في فطرتها الاولى اذا تضامت برابطة اجتماعية تصل بين أفرادها في الدفاع والاغارة وأخرى دينية توحد بينهم في العقيدة ولكنها تعدد من آلهتهم ومعبوداتهم كأمة اليونان في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

١٥ ومنه ما هو تمثيلي يعتمد على الحوار المصحوب بالحركة والعمل الصادر عن كثير من الاشخاص دون اشمال على أمثال سأل وأجاب أو قال وقلت فتري المتحاورين فيه يتحدثون وهم يغدون ويروحون ويأتون من الاعمال ما يستلزمه هذا الحوار متمدين في أقوالهم على ما هنالك من غذاء وموسيقى ورقص وهو في موضوعه أوسع دائرة من القصصى لانه يتناول القصة وغيرها ثم القصة فيه غير قاصرة على الابطال والحروب ولا مقيدة باستيحاء الالهة وخطابها ولذلك لم يظهر في أمة قديمة إلا نتيجة لرقى عقلى كبير وحياة ديمقراطية صحيحة كأمة اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

ومنه ما هو غنائي يخرج عن الدائرة الاجتماعية للقصص والتمثيل الى شخصية الفرد أولا وقبل كل شيء فلا يزال يصور نفسية الشخص وما يتصل بها من وجدان وميل ولا يفتأ صاحبه يغني نفسه بحبه وبغضه ولذته وألمه . وهو نتيجة لرقى الشخصية الفردية وتحررها من قيود الاجتماع المسيطرة من غير رأى ومن شوائب العقيدة المشتركة للألهة في كل عمل . ولذلك كان الرحلة الوسطى لآخويه في الامم التي وجدت بها المراحل الثلاث كأمة اليونان أيضا في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

فطبائع الشعر ثلاثة ونحن اذا عرضنا لأسبابها وميزاتها نطبقها على العرب في جاهليتها لا نجد لها تهيأت إلا للشعر الغنائي فحسب . نعم كان لها ذكر قوى لا بطالها ووصف معرف بحروبها ولكنه لم ينهض أن يسمى شعرا قصصيا لأنها قالته غير مطيلة فيه دون أن تنسى شخصيتها أو تستوحى آلهتها . كما كان لها حوار يظهر في القصيدة بين عاشقين أو متخاصمين ولكنه لم ينهض كذلك أن يسمى تمثيلا ، لأن الحوار فيه على ضيق دائرته وقلته لم يتجرد من أمثال قلت وقال ولم يصحب من المتجاورين بالحركة والعمل كما لم يعتمد على ما يعتمد عليه التمثيل من رقص وموسيقى وغناء .

واذن الشعر العربي غناء كله ولكنه في جاهليته عن طبيعة وبيئة وفي إسلامه عن محاسبة وتقليد وليس يضير العرب من ذلك ضير لأن شاعرية الامة لا تقاس بأنواع الشعر بل بالدرجة التي بلغت إنتاجا وقدرة في النوع الذي تهيأت له والامة العربية قد بلغت من الشعر الغنائي مبلغا لم تشاركها فيه أمة أخرى فقد قالته في كل عصورها فجاء في عمومها معبرا عن الجمال الفني المطلق الذي تنشده الانسانية جميعا ليكون صلة بين شعوبها وأجناسها على اختلاف بيئها وعصورها كما جاء في خصوصه مرءاة تمثل أصدق تمثيل شخصية الشعراء

وحالة البيئات وحياة الافراد والجماعات حتى انه ليعد من أصدق مصادر التاريخ على اختلاف الامكنة والعصور وحسبه أن أدى رسالته بقوة في هاتين الناحيتين وليس بعد ذلك منال .

هذه طبيعة الشعر الجاهلي فاذا قلنا طبيعته وفنونه فانما نقصد الى الفنون الداخلة في هذه الطبيعة الغنائية من نسيب وفخر ورتاء ومدح وهجاء ووصف لا الى أى نوع من النوعين الآخرين وهما القصصى والتمثيلي على أن له أبواباً أخرى ولكن هذه الابواب الستة أهم فنونه إذ هى الاصلية فيه واليها يكاد يرجع غيرها من وعيد وانذار، استعطاف واعتذار، اقتضاء واستنجاز، ملامة وعتاب الى غير هذه مما يعده الادباء . أما الحكم والامثال فلم تك بالـكثيرة في الشعر الجاهلي كما لم تك تأتي وحدها قصدا بل عفوا وفي ثنايا غيرها . وهذه كلمة عن كل فن من الفنون الستة متنوعة بنماذج له .

١ - النسيب

ويرادفه التشبيب والتغزل وكلها راجعة الى المرأة في وصفها حساً ومعنى واطهار الميل اليها والكلف بحبها مع ما يتبع هذا من التألم لفراقها والتشوق الى اللقاءها الى غير ذلك مما يدل على شدة الصباية وفرط الوجد وتصورها في كل ذي صلة بها أو مشابهة لها من الديار والآثار والنبات والحيوان والرياح والبروق . وقد شغل النسيب في الجاهلية مكاناً عظيماً من الشعر ولا يبعد أن يكون أقدم فنونه لقدم علاقة الرجل بالمرأة ولأن حياة البداوة تجعل مشاركتها له مجسمة بارزة ، وهذا الى ما للحل والارتحال الدائبين بتقلب الفصول والايام من خلق أسباب الهوى والهيام لما فيهما من قرب وفراق وتواصل وبعاد . ولذا كثر في العرب العشاق المتيّمون أمثال المرقش الاكبر من بكر وائل

واسمه عوف بن سعد وعبد الله بن العجلان من تهم من قضاة ومالك بن
الصمصامة من بني جعدة ومسافر بن أبي عمرو من قريش ثم عروة بن حزام
الغزري وقد أدرك الاسلام فهو لاء ولهم أمثال وأشباه عاشوا للمرأة وفي المرأة
ماتوا وخلص لها شعرهم كما خالص لها حبيهم ثم لم تعد من غيرهم الكثير من
الشعار ان لم يكن قصدا وبالذات ففي مطالع القصائد وكثيرا ما كانت تراجع
الغرض منها أو تزيد ويحسن أن نختص تلك المطالع باسم التشبيب وهذا فرق
ما بينه وبين التغزل والنسب أما الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال
إن التغزل ما عمد فيه الشاعر الى وصف المرأة مدفوعا الى ذلك بعقيدة أو مسوقا
فيه بصناعة والنسب ما توجه فيه الى ذكر الصباية والوجد وألم الهوى والفراق
صادرا في ذلك عن وجدان وشعور لا يكونان الا في المحبين المغرمين ومن هنا
كانت كلمة النسب أنسب الكلمات الثلاث لاطلاقها على هذا الفن من الشعر
كما اخترناه .

نماذجه

قال المرقش الأكبر وهو من الشعراء المتيمين

سرى ليلا خيال من سليمانى فأرقنى وأصحباني هجود
فبت أدير أمرى كل حال واذكر أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار يشب لها بنى الارطى وقود (١)
حواليها مهأ بيض التراقى وآرام وغ-زلان رقة-ود
نواعم لا تعالج بؤس عيش أو انس لا تروح ولا ترود

(١) ذو الارطى مكان والارطى شجر

يرحن معا بطاء المشى بدءا عليهم المجاسد والبرود (١)

سكن ببلدة وسكنت أخرى وقطعت المواقى والعهود

فما بالى أفى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد

وقال فى ابنة عمه أسماء وهى التى مات بحبها

أغالبك القلب اللجوج صباية وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه

يهم ولا يعيا بأسماء قلبه كذاك الهوى أمراره وعواقبه (٢)

أيلحى امرؤ فى حب أسماء قد نأى بغم من الواشين وازور جانبه

وأسماء هم النفس إن كنت عالما وبأدى أحاديث الفؤاد وغائبه

إذا ذكرتها النفس ظلت كائناتى يززعنى قفقاف ورد وصالبه (٣)

وقال عروة بن حزام العذرى وهو من المخضرمين من قصيدة طويلة فى ابنة

عمه عفراء

على كبدي من حب عفراء قرحة وعيناي من وجد بها تكفان

فعفراء أرجى الناس عندي مودة وعفراء عنى المعرض المتواني

فياليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والانعام يلتقيان

فيقضى حبيب من حبيب لبانة ويرعاها ربي فلا يربان

هوى ناقتى خلفى وقد امني الهوى واني واياها لختلفان

يقول لى الاصحاب إذ يهذلونى أشوق عراقى وأنت يمانى

تحملت من عفراء ما ليس لى به ولا للجبال الراسيات يدان

(١) جمع مجسد كبرد الثوب يلى الجسد وجمع برد كقفل كساء مخطط أو

كسبة يلتحف بها واحدتها بهاء (٢) جمع مرضد الحلو (٣) الورد بكسر الواو والحمى

أو قفقافها ذو الرعدة منها يذهب ويحىء فاذا استمر فهو الصالب

كان قطاة علقته بجناحها على كبدى من شدة الخفقان
 جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إنهما شفياني (١)
 فقالا نعم نشفى من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران
 فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة الا وقد سقياني
 وما شفي الداء الذى بي كله ولا ذخر انصحوا ولا لوانى (٢)
 فقالا شفاك الله والله ما لنا بما ضمننت منك الضلوع يدان

٢ — الفخر

هو تمديح الشاعر بنفسه وقومه وذكر ما أثرهم وبقاؤهم وأكثرت تناول
 الفخر تناول الشجاعة والنجدة والبأس والقوة وإجارة الجار ومنع الحریم واكرام
 الضيف وإيواء الطارقين وهى خير ما كانت تقدر العرب من صفات وأكثر
 ما كان يظهر فى حياتهم ويتطلبه عيشهم. وأنسب ما كان يقع الفخر كان يقع من
 السادة الاشراف والابطال الفرسان ومن جرى مجراهم من الصعاليك المغيرين
 فمن السادة زهير بن جناب الكلبي من قضاة والحسين بن الحمام من قيس والمهميل
 ابن ربيعة وعمرو بن كلثوم من تغلب والافوه الاودى من مذحج وعبد بنو
 من كهلان وعامر بن الطفيل من قيس وأبو قيس بن الاسلت من الاوس
 وقيس بن عاصم من تميم وقد أدرك الاسلام ومن الفرسان علقمة الفحل من
 تميم وعنزة العبسى وحاتم الطائى وسلامة بن جندل التميمى وقيس بن الخطيم
 الاوسى والاغلب العجلي وعمرو بن معديكرب الزيدى ثم أبو محجن الثقفى
 وزيد الخليل الطائى وقد أدرك الاسلام ومن الصعاليك المغاوير عروة بن الورد
 العبسى وتأبط شرا القيسى والسليك بن السلكة التميمى

(١) الاول رباح بن عجلة والثانى الابلق السعدى (٢) ألى قصر من باب نصر

نماذجه

قال عمرو بن الاطنابة أحد بني الخزرج يفتخر بقومه وهو ممن ملك

الحجاز في الجاهلية (١)

اني من القوم الذين اذا انتدوا بدعوا بحق الله ثم النائل (٢)
 المانعين من الخنا جاراتهم والحاشدين على طعام النازل (٣)
 والخالطين فقيرهم بغنيهم والباذلين عطاءهم للسائل
 والضاربين الكباش يبرق بيضه ضرب المهج عن حياض الابل (٤)
 والقاتلين لدى الوغى أقرانهم إن المنية من وراء الوائل (٥)
 والقائلين فلا يعاب كلامهم يوم المقامة بالقضاء الفاصل
 خزر عيونهم إلى أعدائهم يمشون مشى الأعداء تحت الوائل
 ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل (٦)
 وقال حصين بن الحمام المرى في الصبر

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه وأن كان يوم ذا كواكب مظما
 صبرنا وكان الصبر منا سجية بأسيا فنا يقطعن كفا ومعصما
 نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظما
 ولما رأيت الود ليس بنافعي عمدت إلى الامر الذي كان أحزما
 فلست بمبتاع الحياة بذلة ولا مرتق من خشية الموت سلما

وقال حاتم الطائي في الكرم وما اتصف به من مكارم الاخلاق

فاني لا آلو بمالي صنيعه فأوله زاد وآخره ذخر

(١) الاطنابة المظلة وهي أمه (٢) انتدوا اجتمعوا (٣) الخنا الفحش

(٤) الزاجر الابل بقول هج هج (٥) الوائل طاب النجاة (٦) جمع نكس كقرد

الضعيف ، جمع أميل الاعزل

يفك به العاني ويؤكل طيبا وما إن تعريه القداح ولا الخمر (١)
ولا أظلم ابن العم ان كان اخوتي شهودا وقد أودى باخوته الدهر
غنينا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقانا به كئاسيهما العصر (٢)
فما زادنا بأوا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر (٣)
وما ضر جاريا ابنة العم فاعلمى يجاورني ألا يكون له ستر
يعنى عن جارات قومي غفلة وفي السمع منى عن حديثهم وقر

وقال عتيبة بن بجير المازني من بنى الحارث بن كعب في ابواء الطارق

ومستنجح بات الصدى يستتيهه إلى كل صوت فهو في الرحل جانح (٤)
فقلت لاهلى ما بغام مطية وسار أضافته الكلاب النوايح (٥)
فقالوا غريب طارق طوحت به متون الفيافي والخطوب الطوارح
فقلت ولم أجم مكانى ولم تقم مع النفس علت البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما ضمنا قري عشر لمن لانصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جد من فرط الفكاكة مازح
إلى جذم مال قد نه كئنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح
جعلناه دون الذم حتى كأنه اذا عد مال المكثرين المنائح (٦)
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى الى بيتنا مال مع الليل رائح
ومن أحسن ما قيل في الصعلكة قول عروة بن الورد العيسى المعروف بعروة الصعاليك
لما الله صعلوكا اذا جن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجزر (٧)

(١) العاني الاسير (٢) غنينا أقمنا (٣) البأو التكبر (٤) الجانح المائل

(٥) البغام صوت فى حنين (٦) المنايح جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع

إلى الجار ينتفع بلبنها مادام بها لبن (٧) المشاش بضم الميم رأس العظم ومصافيه

أخذه كله

بعد الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
 ينـام ثقيلًا ثم يصبح قاعداً تحت الحصى عن جنبه المتعقر (١)
 يعين نساء الحى ما يستعنه فيضحى طليحاً كالبعير المحسر (٢)
 ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه كضوء سراج القابس المتنور
 مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زحر المنيع المشهر (٣)
 وان بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر
 فذلك إن يلق المنية يلقه -- حميدا وإن يستغن يوما فأجدر
 يريح على الليل أضـه -- ياف ماجد كريم ومـالى سارحا مال مقتر

٣ — الرثاء

هو بكاء الميت وتعدد محاسنه وصفاته في ثوب من التفجع والحسرة والتلهف
 والاسى مع استعظام المصيبة واستشعار الجزع إن كان الميت من ذوى الرياسة
 والاقدار وقد كان من عادة القدماء فيه أن يضربوا الامثال بمن سلف من الانبياء
 والملوك والامراء والعظماء وبما هلك من الوعول المعتمصة بقنن الجبال والاسود
 الخادرة في ثنايا القياض وحرر الوحش الضاربة في مجاهل القفار ثم بالنسور
 والحيات ذات البأس القوى والعمر المديد وأن يخلوه من التشيب الذى اعتادوا
 أن يفتتحوا به القصيد في سائر الفنون ماعداه وهو في الجاهلية ذو شأن كبير
 لما كان بها من حروب ذات بال لا تفتأ تغتال الشجعان وتلتهم الابطال وقد
 شاركت النساء فيه الرجال أكثر مما شاركهم في سائر الانواع لانهن أشجى
 قلوبا وأشد جزعا لما ركب في طباعهن من رقة العاطفة وضعف الاحتمال ولعل
 أول من أكثر فيه وأطال المهمل في رثائه لكليب أخيه ومن مشهورات المراتي

(١) تحت يفرك (٢) الطليح المعى والمحسر ساقط الوبر من الاعياء

(٣) المنيع القدح لا نصيب له

من النساء قصائد الخنساء في أخويها معاوية وصخر ولا سيما الأخير على أن
هذا الباب قد عم وفاض حتى لم يختص به شعراء كما هي الحال في غيره من
الابواب لان الموت شامل والمصيبة على تحريك النفوس بالبكاء ذات قوة
واقترار .

تمادجه

من أقدم المراثي وأجودها ما كان من مهلهل في أخيه كليب ومن أدها
على استفظاع المصيبة قوله

كليب لاخير في الدنيا ومن فيها اذ أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أى فتي عز ومكرمة تحت السفاسف إذ يعلوك سافيهها^(١)
نعى النعاة كليباً لى فقلت لهم مالت بنا الارض أوزالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته ما كل آلائه يا قوم أحصيهها^(٢)
القائد الخيل تردى في أعنتها زهو إذا الخيل لجت في تاديهها^(٣)
من خيل تغلب ما تلقى أسنتها الا وقد عضبوها من أعاديها
يهزهزون من الخطى مدحجة كتما أنا بيها زرقا خواليها
تروى الرماح بأيدينا فتوردها بيضا ونصدرها حمرا اعاليها
ليت السماء على من تحتها وقعت وانشقت الارض فانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصالحكم ما لاحت الشمس في اعلى مجاريها
ومن جيد الرثاء مراثي الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمي في أخويها معاوية
وصخر فمن مراثيها في معاوية قولها

(١) السفاسف جمع سفسف وهو التراب تسفيه الرياح (٢) جمع ألو كدلو العطية

(٣) تردى كترى ترجم الارض بحوافرها

أريق من دموعك واستفيقي وصبرا ان أطقن وان تطيقي
 وقولي إن خير بنى سليم وفارسها بصحراء العقيق
 ألا هل ترجعن لنا الليالى وأيام لنا بلوي الشقيق
 وإذا نحن الفوارس كل يوم إذا حضروا وفتيان الحقوق
 وإذا فينا معاوية بن عمرو على أدماء كالجلج الفنيق (٢)
 فبكميه قدد أودى حميدا أمين الرأى محمود الصديق
 فلا والله لا تسلاك نفسى لفاحشة أنيت ولا عقوق
 ولاكنى رأيت الصبر خيرا من النعلين والرأس الخليق (٢)
 ومنها فى صخر قولها

أعني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندي
 ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفقى السيدا
 طويل النجاد رفيع العما دساد عشيرته أمردا
 إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
 فتال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعبا
 يكلفه القوم ماعا لهم وان كان أصغرهم مولدا
 ترى الحمد يهوى إلى بيته يري أفضل الكسب أن يحمدا
 وإن ذكر المجد ألقبته تآزر بالمجد ثم ارتدى

وقال أبو ذؤيب الهذلى وتتابع له بنون قيل ثمانية وقيل عشرة وقيل
 هلكوا بالطاعون والصواب التتابع

() كمت حمر فى قنوء (٢) الفنيق الضيخم (٣) كان من عادة النساء
 حلق الرأس وتعليق النعلين حزنا .

أمن المنون وريبتها تتوجع والدهر ليس بمتعب من يجزع
 قالت أميمه ما لجسمك شاحبا منذ ابتدأت ومثل مالك ينفع (١)
 أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذلك المضجع
 فأجبتها أما لجسمي أنه أودى بنى من البلاد فودعوا
 أودى بنى فأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
 سبقوا هوى واعتقوا لهواهم فتخرموا وا-كل جنب مصرع
 فغبرت بعدهم بهيش ناصب وإخال أنى لا حق مستتبع (٢)
 ولقد صرحت بأن ادافع عنهم وإذا المنية أنشبت أظفارها
 فالعين بعدهم كأن جفونها القيت كل تيممة لا تنفع
 وتجلدى للشامتين أريهم سميت بشوك فهي عور تدمع
 حتى كأنى للحوادث مروة أنى لريب الدهر لا أتضعضع
 لا بد من تلف مقيم فانتظر بصفا المشقر كل يوم تقرر (٤)
 ولقد أرى أن البكاء سفاهة أبارض قومك أم بأخرى المضجع
 وليأتيك عليك يوم مرة واسوف يولع بالبكاء من يفجع
 والنفس راغبة إذا رغبتها يبكى عليك مقنعا لا تسمع
 كم من جميعى الشمل ملتئمى الهوى وإذا ترد إلى قليل تقنع
 كانوا يعيش ناعم فتصدعوا

(١) أهملت نفسك ولبست المبتذل من الثياب (٢) غبرت بقيت ومضيت
 فهو من الاضداد (٣) سميت فقتت (٤) المروة حجر أبيض براق والصفاء
 واحده صفاء وهى الحجر الصلد الضخم والمشقر الجبل تضرب حجارتة إلى
 الشقرة .

فلئن بهم فجمع الزمان وريبه إني بأهل مودتي لمفجع
وهي طويلة وليكنه بعد هذا أخذ يضرب الامثال بما لم يتركه الموت من
أنواع الوحوش ذات القوة والاعتصام

٤ - المدح

وطريقة التنويه بفضائل الممدوح والتعريف بصفاته اشادة بذكره ورفع
إشأنه سيمان في ذلك وصفه على سبيل العموم والاجمال بأهميات الفضائل
كالشجاعة والعفة والعدل والعقل أو تخصيصه على سبيل التفصيل بما هو أشبه
وله أميز كالإقدام والرأي في القائد والكرم والمساواة في السيد إلى غير ذلك من
الصفات النفسية اللائقة التي ليس للمادح أن يتجاوزها إلى غيرها من الجسمية
كالجمال أو العرضية كالغنى والاعتماد وقاصدا . على هذا كان مدح العرب في
جاهليتهم ثم إن ما ركب في نفوسهم من عزة وإنفة وآباء وكرامة جعلهم يضيقون
دائرة المدح فلم يتعدوا فيه لذاتهم وذوى الرياسة من عشائريهم غير أن السؤال
بالمدائح وطلب الاستجداد بالاشعر لم يلبث أن ظهر فيهم آخر عهدهم فكان
منهم من تكسب بمدحه في ترفع كزهير أو تنزل كالأعشى أو بين كالأناغة
ولكن قلة هؤلاء ولو أنهم شهبوا وبعد وصيتهم لم تخرج بالمدح في جملة عما رسمنا

نماذجه

قال المسيب بن علس وهو من معاصري طرفة بمدح مالك بن سلمة الخير القشيري

ولقد رأيت الفاعلين وفعلمهم ولذي الرقبة مالك فضل

كفاه مخلقة ومعلقة وعطاءه متخرق جزل (١)

يحب الجياد كأنها عسب جرد أطار نسيلها البقل (٢)

(١) متخرق نافذ وجزل عظيم (٢) جمع عسيب الجريدة لا خوص فيها

ونسيل الخيل شعرها والبقل يطيره من الشيع به

والضامرات كأنها بقر تقرو دكاذك بينها الرمل (١)
والدرهم كالعبدان آزرها وسط الاشام مكم جعل (٢)
وإذا الشمال حذب قلائضها رتكافليس لما لك مسئل (٣)
للضيف والجار الغريب ولا طفل التريك كأنه رأل (٤)
ولقد تناواني بنائله فأصابني من ماله سجل (٥)
متبعج التيار ذو حذب مغرورب تياره يعلو (٦)
فلا شكرن فضول نعمته حتى أدوت وفضله فضل

ولزهير في هرم بن سنان المروى وبيته مدائح سارت بها الامثال ومن ذلك قوله
إذا السنة الحمراء بالناس أجهفت ونال كرام المال في الجحرة الاكل (٧)
رأيت ذوى الحاجات عند بيوتهم قطينا لهم حتى إذا نبت البقل (٨)
هنالك إن يستبخلوا المال يخبلوا وإن يسألوا يعطوا وإن يبسروا يغلو (٩)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها القول والفعل
وإن جئتهم ألقيت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام فيهم قائم قال قاعد رشدت فلا غرم عليك ولا خذل
على مكثريهم حق من يعترهم وعند المقلين السماحة والبذل

(١) تقرو تتبع والد كاذك المرتفعات جمع دكذك (٢) النخل الصغير واحدته
أشاة والمكمم ذو الاكمام والجعل الكثير (٣) الرتك تقارب الخطا (٤) الرأل
ولد النعام والتريك المتروك (٥) السجل الدلو العظيمة (٦) متبعج التيار منفرجة
والحذب الارتفاع ومغروzb متماد لا ينقطع سيله (٧) الجحرة كنبقة السنة
الشديدة المجدة (٨) جمع قاطن المقيم (٩) إن يستقرضوه بقرضوه ، ان يبسروا
يلعبوا الميسر

فما كان من خير أتوه قائما توارثه آباء آبائهم قبل
 وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل (١)
 وقال الاعشى يمدح الاسود بن المنذر أخا النعمان من قصيدة طويلة
 والخطاف للناقة

لا تشكى الى وانتجى الاس ود أهل الندى وأهل الفعال
 فرع نبع يهتز في غضن الحج د غزير الندى شديد المحال (٢)
 عنده البر والتقى وأسا الصد ع وحل بالمعضلات الثقيل
 وصلاة الارحام قد علم النا س وفك الاسرى من الاغلال
 وهوان النفس الكريمة للذك ر إذا ما التقت صدور العوالى
 أرى حى صلت يظل له القو م ركودا قى-امهم لهم-لال
 ان يعاقب يكن غراما وان يع ط جزىلا فاته لا يبالى
 ومن مدائح النابغة للنعمان وفيها اعتذار واستعطاف

أتاني أبيت اللعن أنك لم تنى وتلك التى اهتم منها وأنصب
 فبت كان العائدات فرشن لى هراسا به على فراشى ويقشب (٣)
 حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
 لئن كنت قد بلغت عنى وشابة لمبلغك الواشى أغش وأكذب
 واكننى كنت امرأ لى جانب من الارض فيه مستردا ومذهب
 ملوك واخوان إذا ما أيتهم أحكم فى أمواهم وأقرب
 كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
 فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

(١) الخطى شجر الرماح ووشيجه (٢) الغضن الثنى (٣) الهراس
 الشوك ويقشب يخلط

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتدبذب
فانك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب
ولست بمستبق أخا لا نلته على شعث أي الرجال المهذب
فان أك مظلوما فبعد ظلمته وان تك ذا عتي فمثلك يعتب

٥ — الهجاء

ويكون على عكس المديح بتجريد المهجو من الفضائل والصفات المرغبة
كما يكون بوصفه بالردائل الشائنة والاصناف المنفرة وأشد ما وقع بالموازنة
والتفضيل . ولم يتجاوز هجاء الجاهليين القبائل إلى الأفراد ولا العف من القول
إلى الافذاع إلا حيث صار الشعر آلة للتكسب عند بعض الشعراء وأصبح من
الحتم عليهم أن يهجوا ليخيفوا أو ينتقموا وأن يخرجوا في هجوهم من القبائل
إلى الاشخاص متهمكين بأقوالهم سياج العفة والاعتدال ولعل أول من عرف
بذلك الاعشى ثم جاء بعده الخطيئة من الخضر ميين فأفرط وزاد حتى انه لم يهف
على هجو نفسه بما لا يرضى أن يهجو به انسان وكذلك فعل مع أمه وأبيه
غير أن ذلك لم يدنس العصر الجاهلي كله لقصره كما تقدم على آحاد

نماذجه

قال بشر بن أبي خازم الاسدي يهجو أوس بن حارثة لام الطائي

ألا أبلغ بني لام رسولا فبئس محل راحة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب (١)
وما أوس ولو سودتموه بمخشي العرام ولا أريب (٢)
أتوعدني بقومك يا بن سعدى وذلك من ملومات الخطوب

(١) الرشاء حبل الذنوب وهي الدلو (٢) العرام كغرام الحدة والشدة

والكثرة

وحولى من بنى أسد عديد مبن بين شبان وشيب (١)
 هم ضربوا قوانس خيل حجير بجنب الرده فى يوم عصيب (٢)
 وهم تركوا عتيبة فى مكر بطعنة لا ألف ولا هيوب (٣)
 وهم تركوا غداة بنى نمير شريحا بين ضبعان وذيب (٤)
 وهم وردوا الجفار على تميم بكل سميدع بطل نجيب (٥)
 وأفلت حاجب تحت العوالى على مثل المواعة الطلوب (٦)
 وحى بن كلاب قد شجرنا بأرماح كاشطان القليب (٧)
 اذا ما شمريت حرب سمونا سمو البزل فى العطن الرحيب (٨)
 .. وعلى هذا العز الوطيد لبنى أسد يقول عبيد بن الابرص الاسدى
 لامرئ القيس بعد قتل قومه لابيهم يهجوهم فى شعر بالغ من الاستخفاف به
 وتهديده

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه اذلالا وحينما
 أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبا ومينا
 لوما على حجير بن أم م قطام تبكى لا علينا
 إنا إذا عض الثقاف ف برأس صعدتنا لوينا (٩)

(١) المبن المقيم (٢) القوانس أعالي الرءوس وحجير والد امرئ القيس
 (٣) عتيبة بن الحارث طعنه ذؤاب الاسدى والالف البطيء والهيوب الرعدي
 (٤) شريح يظهر أنه من سادات نمير (٥) الجفار ما التميم (٦) حاجب بن زرارة
 والمواعة العقاب والطلوب الشديدة الطلب للصيد (٧) شجرنا دفعنا وفرقنا
 والقليب البشر والاشطان حبالها واحدها شطن (٨) جمع ازل وهو من بلغ التاسعة
 من الابل (٩) الثقاف خشبة تقوم بها الرماح والصعدة الفتاة

نحمى حقيقةنا - وبه ض القوم يسقط بين بينا
 هلا سألت جموع ك ندة إذ توالو أين أيننا
 أيام نضرب هامهم بيواتر حتى انحنينا
 وجموع غسان الملو لك أتينهم وقد انطوينا (١)
 لحقا أياطلهن قد عاجن أسفارا وأينا (٢)
 ولقد صقلن هوازنا بنو أهل حتى ارتوينا (٣)
 نعليهم تحت الضبا ب المشرفي إذا اعتزينا
 نحن الالى فاجمع جموعك ثم وجههم الينا
 وأءلم بأن جيا دنا آلين لا يقضين دينا
 ولقد أحننا ما حميت ولا مبيح لما حمينا
 هذا ولو قدرت عايك رماح قومي ما انتهينا
 حتى تنوشك نوشة عاداتهم إذا انتوينا

وقال الخطيئة وهو من المخضرمين بهجو بني بهدلة ورئيسهم الزبرقان بن بدر
 ويمدح بني عمهم آل شماس وسيدهم بغيض بن عامر على سبيل المناظرة وهو من
 أوجع الهجاء وبخاصة بين الاقربين وكان نزيبا عند الاولين فأهملوا أمره
 وتحول إلى هؤلاء فبالغوا في اكرامه قال :

ألا أبلغ بني عوف بن كعب فهل حى على خالق سواء
 عطاردها وبهدلة بن عوف فهل يشفى صدوركم الشفاء
 ألم أك نائبا فدعوتهموني فجاء بي المواعد والدعاء
 ألم أك جاركم فتركتهموني لكبي في دياركم عواء

(١) الضميران للتخييل (٢) الا ياطل الخواصر (٣) الصلق الضرب

على الهامة

وَأَنْتِ الْعِشَاءُ إِلَى سَهْمِيلٍ أَوْ الشَّعْرَى فَظَالُ بَنِي الْإِنَاءِ (١)
 أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ وَيَكُونُ يَمْنَى وَيَمْنَكُمْ الْمَوْدَةُ وَالْإِخَاءُ
 وَلَمَّا أَنْ | تَيْتَكُمْ أَيْتُمْ وَشَرُّ مَوَاطِنِ الْحَسْبِ الْإِبَاءُ
 وَلَمَّا أَنْ أَيْتَهُمْ حَبُونِي وَفِيكُمْ كَانَ لَوْ شِئْتُمْ حَبَاءُ
 وَلَمَّا أَنْ مَدَحْتَ الْقَوْمَ قَلْتُمْ هَيَجُوتُ وَهَلْ يَحُلُّ لِي الْهَيْجَاءُ
 فَلَمْ أَشْتُمْ لَكُمْ حَسْبًا وَلَكِنْ حَدُوتُ بِحَيْثُ يَسْتَمْعُ الْخَدَاءُ
 فَلَا وَأَيُّكَ مَا ظَلَمْتَ قَرِيعَ بَأْنٍ يَمْنُوا الْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاءُوا
 وَلَا وَأَيُّكَ مَا ظَلَمْتَ قَرِيعَ وَلَا عَنُقُوا بِذَلِكَ وَلَا أَسَاءُوا
 فَابْقُوا إِلَّا أَبَاكُمْ عَلَيْهِمْ فَانْ مَلَامَةُ الْمَوْلَى شَقَاءُ
 وَإِنْ أَبَاهُمْ الْإِدْنَى أَبُوكُمْ وَإِنْ صَدُورَهُمْ مِنْكُمْ بَرَاءُ

٦ - الوصف

معناه الكشف والظهار وأبلغه ما قلب السمع بصرا والشعر لا أقله راجع
 إليه فهو باب في عمومه واسع النطاق ولكنه قصر في عرف الأدباء على غير ما
 اندرج من أوصاف تحت غيره من أبواب. وقد طرقة العرب قدما في كل ما
 شملته باديتهم وتناولته حاجاتهم من أرض وسماء وأحداث جو والوان نبات
 وحيوان يدب على الأرض وطير يصعد في الهواء ولكنهم تفاضلوا فيه كما
 تفاضل الناس في سائر الأشياء فمنهم من أجاد في كثير من الأوصاف وإن غلبت
 عليه الإجادة في بعضها كأمريء القيس ومنهم من قصرت إجادته على وصف
 شيء دون غيره كابي داود الأيادي وطفيل العنوي والنابعة الجعدي في نعت
 الخيل وكطرفه بن العبد وأوس بن حجر في نعت الابل وإن كان أكثر العرب

يجيد وصفها وكالشماح في وصف الحمر الوحشية والفسى وكالاعشى في وصف
الخمر وهكذا ومن ثم عرف فريق من الشعراء باسم الشعراء الوصافين كهؤلاء .
نماذج -

قال النمر بن تولب يصف أبدال الشيب

لعمري لقد أنكرت نفسي ورايتي مع الشيب أبدالى التى أتبدل (١)
فضول أراها فى أديمى بعد ما يكون كفاف اللحم أو هو أفضل (٢)
كأن محطا فى يدى حارثية صناع علمت منى به الجلد من عل (٣)
وقولى إذا ما غاب يوما بعيرهم يلاقونه حتى يؤب المنخل (٤)
وأضحى ولم يذهب بعيرى غربة وأشوى الذى أشوى ولا أتحمّل (٥)
وظلعي ولم أكسر وأن طعيني تلف بذمها فى البجاد وأعزل (٦)
ودهرى فيكفيني القليل وأنى أؤوب إذا ما أبت لا أتعلل
وكنت صفي النفس لا شيء دونه فقد صرت من إفصا حبيبي أذهل
بطيء عن الداعي فلست بأخذ إليه سلاحى مثل ما كنت أفعل
تدارك ما قبل الشباب وبعده حوادث أيام تضر وأغفل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويحمل (٧)
يود الفتى طول السلامة والبقا فكيف ترى طول السلامة يفعل
دعاني الغواني عمهن وخلتني لى اسم فلا أدعى به وهو أول

(١) جمع بدل وهى التغيرات (٢) كفاف اللحم أى مثله وهو أى اللحم
(٣) حط الجلد صقله بالمحط وهو حديد لذلك (٤) يقصد المنخل الشاعر ويضرب
المثل بعدم أوبته (٥) أضحى أبقى مقيما فى الضحاء (٦) الظلع العرج والبجاد
للحاف (٧) ينوء يقوم فى ثقل

وقال المرقش الاء كبر يصف فرسا

غدونا بضاف كالعسيب مجمل طويناه حتى عاد وهو ملوح (١)
 أسيل نبيل ليس فيه معابة كيت كلون الصرف أرجل أقرح (٢)
 على مثله تأتي الندي مخايلا وتعبر سرأ أى أمريك أفلح
 وتسبق مطروداً وتلحق طاردا وتخرج من غم المضيق وتخرج
 تراه بشكات المدجج بعدما يقطع أقران المغيرة يجمع (٣)
 يجم جموم الحسى جاش مضيقه ويردى به من تحت غيل وأبطح (٤)
 شهدت به فى غارة مسيطرة يطاعن أولاهها سواء ويطرح (٥)

وقال الشماخ بن ضرار يصف قوسا

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحرائز (٦)
 نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز (٧)
 فما زال ينجو كل رطب ويابس وينغل حتى نالها وهو بارز (٨)
 فأنهى عليها ذات حد غرابها عدولا وسطا العضاه مشاوز (٩)

(١) الضافى الطويل الذيل والمجلل ذو الجمل والعسيب الجريدة لا خوص
 فيها وملوح مغبر من الشمس (٢) الاسيل الطويل والنبيل الغليظ والصرف الخمر
 خالصة غير ممزوجة والارجل المحجل والاقرح الاغر (٣) الشكات جمع شكة
 وهى السلاح والمدجج المستور فى سلاحه والمغيرة الخيل (٤) الحسى البئر ويجم
 يفيض وجاش فار ويردى سير الرديان والغيل الماء الجاري والاء بطح المسيل
 فيه دقاق الحصا (٥) المسيطرة الممتدة (٦) الضالة السدرة البرية والشذب العيدان
 والحرائز قطع الشجر (٧) من غيلها فى منبتها ومتلاحز متضايق داخل
 (٨) ينجو يقطع وينغل يدخل (٩) ذات الحد القاس وغرابها حدها
 والعضاه جمع عضاهة شجر والمشاوز المشاكس

فلما اطمأنت في يديه رأى غنى أحاط به وازور عمن يحاوز (١)
فأمسكها عامين يطلب درأها وينظر منها ما الذي هو غامر (٢)
أقام الثقف والطريدة متنها كما أخرجت ضغن الشموس المهامز (٣)
فوافى بها أهل المواسم فانبى لها بيع يغلى بها السوم راز (٤)
فقال له بايع أخاك ولا يكن لك اليوم عن ربح من البيع لاهز (٥)
فظل يتناجى نفسه وأميرها أياي الذي يعطى بها أويجاوز (٦)
فلما شراها فاضت العين عبرة وفي الصدر حزاز من الوجد حامز (٧)
فذاق فأعطته من اللين جانباً كفى ولها أن يغرق السهم حاجز (٨)
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز (٩)
هتوف إذا ما خالط الظبي سهمها وإن ريع منها أسلمة النوافز (١٠)
كان عليها زعفراناً تميره خوازن عطار يمان كوازن (١١)
إذا سقط الانداء صينت وأشعرت حبيراً ولم تدرج عليها المعاوز (١٢)
وقال النابغة الجعدي يصف ذئبا افترس جؤذراً

فأمسى عليه أطلس النون شاحيا شحيحاً تسميه النباطى نهسراً (١٣)
طويل القرا عارى الاشاجع مارد كشق العصا فوه إذا ما تضورا (١٤)

(١) ازور مال ويجاوز يجمع ويضم (٢) درأها دفعها (٣) الثقف خشبة
التقويم والطريدة قصبه التعديل والمهامز جمع مهاز (٤) الرائز المجرب الخبير
(٥) لاهز صاد (٦) يجاوز يقبل (٧) شراها باعها وحامز ممض محرق (٨) ولها
أن يغرق السهم حاجز أي لها حاجز من أن يغرق السهم (٩) أنبض في القوس
أصاتها أو حرك وترها لترن (١٠) النوافز القوائم (١١) تميره تسيله
(١٢) أشعرت ألبست والمعاوز جمع معوز وهو الثوب الخلق (١٣) شاحيا

فاتحاً فاه (١٤) القرا الظهر والاشاجع السيقان

فبات يذكيه بغير حديدة أخو قنص يمس ويصبح مقفرا (١)
 إذا ما رأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفرفرا (٢)
 هذا وباب الوصف حافل لا تفيه النماذج حقه مهمال إيرادها فلنتركه على
 هذا القدر على أن نستكمل بعض نقصه من المعلقات بعد ولذا جعلنا المختار منه
 هنا من غير الأتماط الواردة فيها إلا ما كان من وصف الفرس ومع ذلك نحا
 المرقش فيه غير ما نحا عنتره وامرؤ القيس
 هذا وقد حدنا عن الاختيار من المعلقات لأن لها دراسة بعد

٣ - تسجيله كثيرا من أحوال العرب

لم تدع فنون الشعر الجاهلي ما ذكرنا منها وما لم نذكر خلقا من أخلاق
 العرب في ذاك العهد إلا صورته ولا وجدانا من وجدانهم إلا أظهرته كما
 لم تدع في بيثهم كائنات محسودون وصف ولا في عرفهم شيئا من عادة أو عقيدة
 دون ذكر وحسبنا ما تقدم من نماذج في الخلق والوجدان والوصف
 أما الأوابد وهي ما جرى عليها العرف العربي عن عقيدة أو عادة فانا عاطفون عليها
 هنا بذكر الشواهد الشعرية على الكثير منها دون أن تفصل الكلام في العادة
 عن العقيدة لأن معظم العادات كان منشؤه الاعتقاد حقاً كان أم باطلا
 ١ - قال رجل في الاستقسام بالأزلام وكان ذو الخليفة من الأصنام التي
 يستقسم بأزلامها بين مكة والمدينة فقتل أبوه فاراد الطلب بثأره فذهب إليه
 فاستقسم عنده فخرج السهم بنهيه فقال
 لو كنت يا ذا الخلف الموتورا مثلي وكان شيخك المقبور لم تنه عن قتل العداة زورا

(١) يذكيه يذبحه ومقفرا جائعا (٢) الكراع بضم الكاف الساق أو
 مستدقه وفرفر كسر وقطع وحرك ونقض

٢ — وقال ابن مقبل يفتخر باليسار والنحر لها

يا بنت آل هشام هل علمت إذا أمسى المراضيع في أعناقها خضع
أنى أتمم أيسارى بذى أود من فرع شوحط ضاح ليظه فرع
يحدو قتائله بيض غطارفة شم الانوف مغاليق الضحى ضلع
أولو الوفاء ولو أدوا قداحهم ولا يزال لهم من لحمها قنع

٣ — وقال جريبة بن الاشيم الفقعسى لابنه يوصيه بالعقر على قبره إذا مات

إذا مت فادفنى بحراء ما بها سوى الاصرخين أو يفوز راكب
فان أنت لم تعقر على مطيتى فلا قام فى مال لك الدهر حالب
ولا تدفنى فى صوى وادفنى بديمومة تنزو عليها الجنادب

٤ — وجريبة هذا هو الذى يقول لابنه أيضا فى البلية

ياسعد إما أهله كن فانى أوصيك إن أخا الوصاة الاقرب
لا أعرفن أباك يحشر خلفكم تعباً يخر على اليدين وينكب
فاحمل أباك على بعير صالح وتق الخطيئة انه هو أصوب
ولعل لى مما جمعت مطية فى الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

٥ — ومن أشعارهم فى ضرب الثور لتشرب البقر قول نهشل

كذلك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء

ومثل ذلك أشعارهم فى كى السليم ليبراً الاجرب قال النابغة

لكلفتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوي غيره وهو راتع

وقد استخدم الشعراء هذين المعنيين كثيراً فى الرجل يعاقب وغيره الجانى

قال الشاعر

فلا تجعلوها كالبعير وفعلها يكسر ضرباً وهو للورد طائع

وما ذنبه إن لم ترد بقراته وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

وقال آخر

فألزمتني ذنباً وغيروا جره حنانيك لا تكو الصحيح بأجربا
 ٦ — وفي مذهبهم في تعليق الحلي والجلجل على اللديغ ويسمونه سليما
 تفاؤلا ليبراً يقول شاعرهم
 كاني سليم ناله كلم حية تري حوله على النساء موضعاً

ويقول آخر

فبت معنى بالهموم كأنني سليم نفي عنه الرقاد الجلجل
 ٧ — وقالت امرأة في زوال حلا الشفة بوضع المنخل على رأس المصاب بها
 ألا حلا في شفة مشقوقة فقد قضى منخلنا حقوقه
 ٨ — ويروون أن جنية أرادت صي قوم بسوء فلم تدر عليه فلامها
 قومها فقالت تعتذر اليهم

كان عليه نقره ثعالب وهرره والحيض حيض السمرة
 وهذا على بعده من الحقيقة يوضح عقيدة بعض العرب في أن تعليق سن الثعلب
 والهرة وصمغ السمرة على الصبي يقيه شر الجنة وكذلك كانوا يعتقدون في
 تعليق كعب الارنب وأشياء أخرى

٩ — وقال طرفة في تبديل الشمس أسنان الاثغار بخير منها إذا قذفت في عينها
 بادن نجلو إذا ما ابتسمت عن شتيت كقاحي الرمل غر
 بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الاشر
 ١٠ — ومن عقائدهم التي يكاد يجمع عليها الهامة وهي طائر يزعمون
 خروجه من رأس كل ميت فاذا كان قتيلاً لا تزال تقول اسقوني اسقوني فاني
 صديقة حتى يؤخذ بشأره وفي ذلك يقول بعضهم يوصي ابنه

ولا ترقون لي هامة فوق مرقب فان زقاء الهام للمرء عائب
 تنادي ألا اسقوني وكل صدي به وتلك التي تبيض منها الذوائب

وقال آخر يهجو ويعير

وان أخاكم قد علمت مكانه بسفح قبا تسقى عليه الأعاصر
له هامة تدعو إذا الليل جنبها بنى عامر هل للهلالى نائر
١١ — وقال بعضهم فى رثاء شريف تتخطاه المقاليت « اللائى لا تعيش

لهن أولاد»

بنفسى الذى تمشى المقاليت حوله يطأن له كشحا هضما مهتما
١٢ — وقريب من هذا ما كانوا يعتقدونه من أن دم الشريف يشفى من
الكلب قال عبد الله بن الزبير الاسدى

من خير بيت علمناه وأكرمه كانت دماؤهم تشفى من الكلب
١٣ — ومن أشعارهم فى كى ألىتى العاشق ليذهب عشقه ويشفى منه

قول الشاعر

شكوت إلى رفيقى اشتياقى فجاءانى وقد جمعا دواء
وجاءا بالطبيب ليكويانى ولا أبغى عدمتكما اكتواء
ولو أتيا بسامى حين جاءا لعاضمتى من السقم الشفاء
١٤ — أما شق الرجل برقع المرأة وشق المرأة ليدوم جبهما فمما ورد
فيه قول سحيم عبد بنى الحسحاس

إذا شق برد شق بالبرد برقع دوايك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى والى الهوى يغرى بهذى الوسواس
١٥ — ومن أشعارهم فى إذهاب خدر الرجل بذكر محبوب قول الشاعر
صب محب إذا ما رجله خدرت نادى كيشة حتى يذهب الخدر
١٦ — ومما يقرب من هذا أن الرجل منهم كان إذا خلجت عينه توقع

رؤية من يحب غائبا أو بعيداً وفى ذلك يقول بعضهم

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وإن كان المزار بعيداً
 ١٧ وأشعارهم في النيران المتنوعة التي اعتادوا إيقادها لما تقدم كثيرة
 متنوعة أيضاً نذكر منها هنا الشواهد على نارين غريبتين أحدهما نار البقر أو
 الاستمطار وذلك أنهم كانوا إذا حبس عنهم الحيا عمدوا إلى حزم من السلع
 والعشر وهما نوعان من النبات شديداً الاتهاب فعقدوها في أذنان البقر
 وأصعدوها في جبل وعر ثم أوقدوا فيها وساقوها قبل المغرب قال أعرابي وقد
 فعلوا ذلك فلم يمتطروا ثم أمطرهم الله بعد

شفعنا ببيقور الى هاطل الحيا فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جديداً
 فعدنا الى رب الحيا - فأجارنا وصير جديداً الارض من عنده خصباً
 والثانية نار السعالى والسعالى أخبث الغيلان وهى نار يقولون انها كانت تقع
 للمتغرب المتقفر فيأنس ويهتدى وفي ذلك يقول عبيد بن أيوب :
 والله در الغول أى رفيقة لصاحب دو خائف متقفر
 أرنت بلحن بعدلحن وأوقدت حوالى نيرانا تبوخ وتزهر

١٨ — وعلى ذكر الغيلان وهى السحرة من الجن والشياطين كما كانت
 العرب تعتقد نقول إنها كانت تعتقد أيضاً أن الجن والشياطين تسكنهم في
 بلادهم ولذلك كانوا يعوذون بهم يؤيد ذلك قوله تعالى « وانه كان رجال
 من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » وقد سجل الشعر ذلك
 بإفاضة قال بعضهم :

قد بت ضيفاً لعظيم الوادي المانع من سطوة الاعادى راحتى في جاره وزادى
 وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البعيد بسيد معظم محيى
 اصبح ياوى بلوى زرود ذى عزة وكاهل شديد

وقال غيرهما

ياجن أجزاء اللوى من عاج عاذ بكم ساري الظلام الدالج
لا ترهقوه بغوى هائج

وقال رابع

هيا صاحب الشجر اهل أنت مانعى فاني ضيف نازل بفنائكا
وانك للجنان فى الارض سيد ومثلك آوى فى الظلام الصعالك
واستعاذ رجل ومعه ولد بعظيم واد فأكل ابنه الاسد فقال
قد استعدنا بعظيم الوادى من شر ما فيه من الاعادى فلم يجرنا من هز برعاد
١٩ — ولقد تمادى العرب فى هذه العقيدة حتى ادعى بعضهم مخالطة الجن
ومكالمتهم واستضافتهم بل والنزوح منهم وتناسلهم ولهم فى ذلك أشعار وأقاصيص
فهذا جذع بن سنان يقول

أتوا نارى فقلت ممنون أتم فقالوا الجن قلت عموا ممباحا
وسمير بن الحارث الضبي يقول

أتوا نارى فقلت ممنون قالوا سراة الجن قلت عموا ظلما
وهذا عمرو بن ربوع يزعم أنه تزوج من غول وولد له بنون عرفوا ببني
السعلاة وفى ذلك يقول شاعر يهجوهم

يا قبح الله بنى السعلاة عمرو بن ربوع شرار الناس ليسوا بأبطال ولا اكيات
وتأبط شرا يدعى أنه قابل غولا اعترضته فقتلها فقال

لهان على جهينة ما ألقى من الروعات يوم رحنى بطن
لقيت الغول تسرى فى ظلام بسهب كالعباءة صحصحان

فقلت لها كلانا نضو أرض أخو سفر فخلي لي مكاني
فشدت شدة نحوي فأهوى لها كفي بمصقول يمان
٢٠ - ومن هذه الناحية من الاتصال ما كان يزعمه العرب وشعراؤهم من أن
لكل شاعر شيطانا يلقي اليه بالشعر وكانوا يعتقدون بوجه عام أن للشعر شيطانيين
الهوبر مجيد والهوجل مفسد روى أن رجلا من تميم أتى الفرزدق فقال إني قد
قلت شعرا فانظره قال أنشدني فقال

ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق ثم قال يا ابن أحمى ان للشعر شيطانيين يدعى أحدهما الهوبر
والآخر الهوجل فمن اتفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه ومن اتفرد به
الهوجل فسد شعره وانهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في
أوله فأجدت وخالطك الهوجل في آخره فأفسدت ومن هنا كانوا يسمون
الشعر رقي الشياطين قال جرير

رأيت رقي الشيطان لا تستغفره وقد كان شيطاني من الجن راقيا
ولهذه العقيدة كانوا يسمون لكل مجيد من الشعراء شيطانا خاصا وكانوا
يتحاضرون إلى الجنة إذا ظفروا بهم في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض ولهم
في ذلك حكايات وأقاصيص نسوق بعضها على سبيل التمثيل

١ - ذكر مطرف الكناني عن ابن دأب عن رجل من أهل زرود عن أبيه
عن جده أنه خرج على فحل له في طلب لقاح ضالة حتى دفع إلى خيمة بقنائها
شيخ كبير فدارت بينهما مكاملة انتهت بطلبه من هذا الشيخ أن ينشده من
أشعاره فأنشده

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فلما فرغ قال له لو أن امرأ القيس ينشر لردعك عن هذا الكلام فقال له أنا والله
منحته ما أعجبك منه قال فقلت له ما اسمك قال لا فظ بن لاحظ قلت اسمان
منكران قال أجل فعلمت أنه من الجن فقلت له من أشعر العرب فأنشأ يقول
ذهب ابن حجر بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يعاب زياد
لله هاذر إذ يجود بقوله ان ابن ماهر بعدها لجواد
قلت من هاذر بن ماهر قال صاحب زياد الديلمي وهو أشعر الجن وأضمنهم
بشعره فاعجب منه كيف سلسل لا خي ذبيان به ولقد علم بنية لي قصيدة له
له من فيه إلى أذنها ثم صرخ بها اخرجي فدى لك من ولدت حواء فخرجت
فأنشدني .

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها حزين
حتى أتت على قوله منها

فألقيت الامانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون
فقال والله لو كان رأى قوم نوح فيه كراى هاذر ما أصابهم الغرق قال الرجل
حفظت البيتين ثم نهض بي الفحل فعدت إلى لقاحي
ب — وحدث مطعون بن مطعون الاعرابي عن أبيه أنه خرج على بعيره حتى
إذا كان في سفح جبل رأى على قنته رجلا عليه أطمار بالية ونجمت بينهما
محاوره انتهت بقوله للرجل أتروى من أشعار العرب شيئا قال نعم أروى
وأقول قولاً فائماً مبرزاً قال فقلت أرني من قولك ما أحببت فأنشأ يقول
طاف الخيال علينا ليلة الوادي لآل أسماء لم يلم لم يعاد
حتى فرغ منها فقلت لهذا الشعر أشهر في معد بن عدنان من ولد الفرس الا باق
في الدهم العراب هذا لعبيد بن الابرص الاسدي فقال ومن عبيد لولا هبيد قلت
ومن هبيد فأنشأ يقول

أنا ابن الصلادم أدعى الهيبه دحبوت القوافي قرمى أسد
 عبيدا حبوت بماثوره وأنطق بشرا على غير كد
 ولاقى بمدرك رهط الكمية تملذا عزيزا ومجدا وجد
 منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هذا معد
 فقلت أما عن نفسك فقد أخبرني فأخبرني عن مدرك فقال هو مدرك بن واغم
 صاحب الكمية وهو ابن عمي

ج - وذكر شيخ من أهل البصرة أنه خرج في ليلة مقمرة على جمل له إلى
 الصحراء فأبصر شبحا كهيئة انسان على ظهر ظليم قد خطمه وهو يقول
 هل يبلغنيهم إلى الصباح هقل كأن رأسه جماح

فعلم أنه جنى قال فقلت له من أشعر الناس قال الذي يقول
 وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل
 فعلمت أنه يريد امرأ القيس قلت ثم من قال الذي يقول

وتبرد برد رداء العرو س في الصيف رقرقت فيه العبيرا
 وتسخن ليلة لا يستطيع مع نبا حابها الكلب إلا هريرا

فعلمت أنه يريد الاعشى قلت ثم من قال الذي يقول
 تطرد القر بحر صادق وعيك الصيف ان جاء بقر
 فعلمت أنه يريد طرفة وانقطع الحديث

د - وحدث الاعشى أنه خرج يريد قيس بن معد يكرب بحضر موت فضل
 حتى وقعت عينه على خباء ببابه شيخ فانتسب له وأفهمه أنه يقصد قيسا فقال
 له حياك الله أظنك امتدحتك بشعر قال نعم قال فأنشدنيه فأنشده
 حلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدا لها

فقال حسبك هذا البيت أهذه القصيدة لك قلت نعم قال من سمية قلت لا أعرفها
 إنما هو اسم القى فى روعى فتادى ياسمية اخرجى أنشدى عمك قصيدتى التى
 مدحت بها قيس بن معد يكرب فاندفعت تنشد حتى أتت على آخرها لم تخرم
 فيها حرفاً ثم قال هل قلت شيئاً غير ذلك قلت نعم كان بينى وبين ابن عم لى
 يقال له يزيد بن مسهر ما يكون بين بنى العم فهيجاني فهجوته فأثخنته قال ماذا
 قلت فيه قلت قلت

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
 فقال حسبك من هريرة قلت لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها فتادى ياهريرة
 أنشدى عمك قصيدتى التى هجوت بها يزيد بن مسهر فأنشدتها كسا بقتها فسقط
 فى يدي وتحيرت وتغشيتنى رعدة فلما رأى ما نزل بى قال ليفرخ روعك يا أبا
 بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذى اتى على لسانك الشعر قال فسكنت نفسى
 ثم داني على الطريق وأراني سميت مقصدي . وفى مسحل هذا يقول الاعشى
 وما كنت شاحوذاً ولكن حسبتي اذا مسحل يسدى لى القول أعلق
 شريكاً فيما بيننا من هوادة صفيان انسى وجن موفق
 يقول فلا أعيأ بقول يقوله كفاني لاعى ولا هو أخرق
 ويقول فيه وفى جهنم شيطان فرو بن قطن

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنم جدعا للهجين المذمم
 وهذا مذهب شائع قال حسان بن ثابت
 ولى صاحب من بنى الشيصبا ن فطورا أقول وطورا هوه
 وقال أبو النجم

انى وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
 حيا ملي

وقال آخر

اني ان كنت صغير السن و كان في العين نبو عنى
فان شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن
والرأى في هذا وأمثاله أن الجن مع وجودها لا يقع منها للناس ما تدعى العرب
وانما هذه تخيلات صوروها ليرفعوا من قيمة الشعر وأنه كاسحر لا ينبغي
صدوره إلا عن الجن الذين هم في اعتقادهم مصدر العبقرية في كل شىء ولذلك
يقولون عن كل معجب عبقرى نسبة الى عبقر وما عبقر عندهم إلا واد للجن
وليس هذا الخيال قاصرا على العرب وحدهم ان تشاركهم فيه الأمم القديمة
جميعا بل كان معظمها يعبد هذه القوى الخفية من خيرة طمعا في خيرها وشريرة
خوفا من شرها . أما تلك الاقاصيص فهى أساطير حاكوها كما حاكوا مضارب
الامثال الفرضية وكما وضعت سائر الأمم أساطيرها وليس عليهم في ذلك
ما يعاب ففي الناحية الادبية ينبغي أن يطلق من عنان الخيال ما شاء الخيال

٤ - تأثيره و منزلة رجاله

لقد كان للشعر في العرب تأثير ما أبلغه من تأثير ولرجاله بينهم مكانة
ما أرفعها من مكانة ذلك انهم كانوا ذوى فطر سليمة ونفوس حساسة وكان
الشعر طبيعة فيهم يمزج منهم بالدم واللحم لا يزالون يقولونه ويستوحون سماءه
فينقادون لخياله ويخضعون لأحكامه . وكان للشعراء عليهم نفوذ وسلطان
لا يقل شأننا عن نفوذ الصحف السيارة الآن على الافراد والجماعات فكانت
كل قبيلة تغتبط بكثرة شعرائها وتتخير من بينهم اقوام حجة وابلغهم قولا
ليكون المشيد بحاسنها ومفاخرها الذاب عن احسابها واعراضها . أثر فيما اثر

أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى لتهنئتها فصنعت
الاطعمة ومدت الموائد وتباشر الرجال والولدان واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر
كما يصنعن في الاعراس . واشدة ما كان للشعر من تأثير جاوز فيه المنطق وتعدى
المعقول نسيبه العرب إلى الجن وسمو الشعراء بالساحرين قال رؤبة

لقد خشيت أن تكون ساحرا راوية مرا ومرا شاعرا

وكان ذلك عاما ففي كل باب من أبوابه كان يبلغ الشاعر ما لا يبلغ غيره إذا
نسب رقق القلوب القاسية واستنزل العصم العاصية وإذا وصف أراك ما لم تر
كأنه المرئي وقد يكون تمثيلا لا يستند إلا إلى الخيال والتصوير واذرني آثار
الشجون وحرك مكانن الذكريات فإذا ما فخر بالحماسة والاستبسال حبيب إلى
الجبنة القتال وأرخص الموت على مغلى الحياة قال معاوية بن أبي سفيان اجعلوا
الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم فلقد رأيتني ليلة الهرب بصنفين وقد أتيت بفرس
أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب من شدة البلوى فما حملني
على الإقامة إلا أنبيات عمرو بن الاطنابة

أبت لي همتي وأبي بلائي وأخذني الحمد بالثمن الريح
وإقحامى على الماكروه نفسي وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى
لا أدفع عن ماثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

وابن الاطنابة كما تقدم من شعراء الخزرج الجاهليين

أما شعراء المدح والهجاء فقد كانوا شفاء أقوامهم وسموم أعدائهم لا يزالون
لقبائهم يحمون ساططها ويرفعون بنيانها كما يذبون عن حياضها ويدافعون عن
وردها وأمر احتفاء القبائل بشعرائها كثير الحوادث مروى الأئشعار ولا يكن

الذي نريده أقوى حجة في الاستدلال على تأثير الشعر أن الشاعر كان إذا
تعرض لقبيلة بهجاء وفيها من الشعراء من يخشى لسانه ويتقوى هجوه لم يك
أمام قبيلته في دفع ما تحذر إلا حمله إلى من هجأهم متبرئة منه ومسالمة فيه وهذا
ما حدث حين هجأ عبد الله بن الزبير السهمي بنى قصي فقد رفعه السهميون
إلى عتبة بن ربيعة خوفا من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعرا شديدا
العارضه قدع الهجاء فلما وصل عبد الله إليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه
فقال عبد الله غير مستنكر ما فعلت عشيرته

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وإن صالحت اخوانها لألومها
فإن قصيا أهل مجد وعزة وأهل فعال لا يرام قديمها
وكان الزبير غائبا بالطائف فلما وصل إلى مكة وعلم الخبر قال

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم سمال أو طمار بها ودك كما دسم الحميت
ولكننا خلقنا إذ خلقنا لنا الخيرات والمسك الفتيه

وكان الشاعر إذا رضى لنفسه أن يتجاوز بمدحه وهجائه قبيلته وأعداءها
تطلعت إليه القبائل الأخرى فأخذت تقربه رجاء مدحه فيها وهجائه لمناظرها
كما كان من الخطيئة فقد استضافه الزبرقان بن بدر من بني بهدلة وقصرت
امراته في اكرامه وهو غائب فأخذ به غيظ بن عامر من آل لائي بن شماس
وبالغ في اكرامه فكان خير ما قاله من شعر هجاء ومدح في هذين الحين وقد
دلف شيء منه في النماذج

على أن التحاسد على الشعراء لم يك قاصرا على القبائل بل تعداها إلى
الملوك فهذا النعمان بن المنذر ملك الحيرة تبصر كيف كان اجتذابه للناطقة

يمدحه ويمدح آل بيته وكيف حسده عليه الغساسنة ملوك الشام فأعظموا في
حبائه حتى مدحهم ثم كيف غضب النعمان عليه لذلك غضبا سارت باعتذارات
النابعة عنه الامثال ومع ذلك لم ينل من النعمان رضا لأن الشرقة في هذا الباب
بين متناظرين ليست مما يطاق

ومن غريب تأثير الشعر أن الشاعر كان اذا وصم سيديا لم يجد من يغسل
عنه ذلك الا هذا الشاعر نفسه ذكروا أن بشر بن أبي خازم الاسدي لما
حمل على هجاء أوس بن حارثة بن لام الطائي فهجاه بما تقدم بعضه ووقع
بشر أسيرا عند بني نهمان من طيء اشتراه أوس بمائتي بعير ولما أخذه قال له
هجو تني ظالما فاختر بين قطع لسانك وحبسك في سرب حتى تموت وبين قطع
يديك ورجليك وتخمية سبيلك هكذا ذكر الرواة ورأى أن سياق القول يقتضي
قرن التخمية بقطع اللسان والحبس بتقطيع اليدين والرجلين وأن هذا تحريف
قالوا فسمعت أمه وهي سعدى بنت حصن من سادات طيء فقالت لأوس يا بني
لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة فأصبحت والله لأرجوك لنفسك خاصة
أزعمت أنك قاطع رجلا هجأك فمن يمجو اذن ما قال فيك قال فما أصنع به قالت
تكسوه حلتك وتحمله على راحلتك وتأمر له بمائة ناقة حتى يغسل مديحه هجاءه
ففعل فامتدحه فأكثر قال أبو محمد الا خفش مدح بشر أوسا وأهل بيته مكان
كل قصيدة هجاء بها قصيدة وكان هجاءهم بخمس فدحهم بخمس
ومن مدائحهم فيه قوله من قصيدة والخطاب للناقة

الى أوس بن حارثة بن لام لربك فاعلمي ان لم تخاف
فما صدع بنجمة أو بشرج على زلق زوالق ذي كهاف

نزل اللقوة الشغواء عنها مخالباها كأطراف الأشفاف
 بأحرز موئلا من جار أوس اذا ماضيم جيران الضعاف
 وماليت بعثر في غريف تغنيه البعوض على النطاف
 مغب ما يزال على أكيل يناعي الشمس ليس بندي عطاف
 بأأس سورة بالقرن منه اذا دعيت نزال لدى النفاف
 وما أوس بن حارثة بن لام بغمر في الامور ولا مضاف
 ومن ذلك ما كان من حسان بن ثابت في بني عبد المदान هجاءم ببسطة
 أجسامهم وكانوا يفخرون بها فقال
 لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال واحلام العصافير
 فلم يزالوا ينجلون منها حتى مح ذلك عنهم بقوله
 وقد كنا نقول اذا التقينا لدى جسم يعد وذي بيان
 كأنك أيها المعطى لسانا وجسما من بني عبد المदान
 وأغرب مما تقدم في تأثيره أنه كان اذا تعرض لنا به أنزله من ذروته فاذا أعان
 خاملا رفعه من وهدته فمن قضى على مكانتهم الربيع بن زياد وكان من خواص
 النعمان لم يزل يناديه ويؤاكله حتى سمع فيه وهما يا كلان أرجوزة لبيد التي يقول
 فيها « مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه » وفيها إقذاع فرفع يده عن الطعام فقال
 الربيع أبيت اللعن كذب الغلام وأراد الاعتذار فقال النعمان
 قد قيل ما قيل ان صدقا وان كذبا فما اعتذارك من قول اذا قيل
 ثم حجبه بعد ذلك فسقطت منزلته : وممن رفعهم بعد خمول المحاق الكلابي وكان
 مملقا كثير البنات قد رغب عن مصاحبته الأزواج فأشارت عليه امرأته أن
 يضيف الأعرشى وهو قادم إلى الموسم فيكرمه بكل ما يملك ليقول فيه قولا تتزوج

به بناته وتحسن حاله ففعل وعرف الاعشى ذلك فلما أصبح بعكاظ أنشد قافيته
المشهورة التي يقول فيها فيما نحن بصددده

نقى الذم عن رهط المحلق جفنة كجارية الشيخ العراقي تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبان ثدى أم تحالفا بأسحم داج عوض لا تتفرق
ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه كما زان متن الهندواني روثق

فما أتم القصيدة الا والناس يتسللون إلى المحلق يهتثونه ويخطبون بناته فلم تمس
واحدة منهم الا في عصمة رجل بين الفضل على ايها .

بل لقد بلغ من تأثير الشعر أنه كان يبيت واحد يجعل مفخرة القبيلة مسبة ومسبتها
مفخره كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم لا يبيهم لما روى من أنه لقب به
لتعجيله قري الاضياف فلما هجاهم النجاشي بأبيات منها

وما سمي العجلان الا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبدوا عجل
صاروا يستحيون منه وكان بنوا أنف الناقة يخجلون من هذا الاسم ويتجاوزونه
في نسبهم حتى قال الخطيئة

قوم هم الانف والاذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا
صاروا يتطاولون به ويمدون فيه أصواتهم بجهارة
بل بلغ من تأثيره أيضا أنه كان كما قيل

يرى حكمة ماقيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
وقد يما نفر عامر بن الطفيل نلى عاقمة بن ثلاثة مع تسوية الحكم وهو

هرم بن قطيبة بينهما بقول الاعشى

علقم ما أنت الى عامر بالناقض الاوتار والواتر

إن تسد الخوص فلم تعدهم وعامر ساد بنى عامر

لى آخر ما قال

من ذلك كاء وغيره كان الشعراء ذوى منزلة ترجى وترغب كما تخاف
وترهب لا يزالون يستخدمون للوعيد والاغراء ويستعان بهم فى الاستعطاف
والاستشفاع فى الجاهلية أغرى أوس بن حجر النعمان بن المنذر على بنى حنيفة
فنكل بهم واستشفع علقمة الفحل الحارث الغسانى فى أخيه شاس وتسعين أسيرا
معهم من تبم فأطاعتهم له جميعا وفى حياة النبي صلى الله عليه وسلم كان ما كان
للمسلمين والمشركين على ألسنة الشعراء من الفريقين وأمر رسول الله فى ذلك
وفى قبول الشفاعات من الشعراء ثابت معروف وما بعده فى سائر العصور
كثير مشهور واكن لاداعى ونحن فى العصر الجاهلى أن نجاوزه الى ما خلفه
من عصور فيما كان للشعر من أثر وللشعراء من مكان

ه — طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فيهم

ثم سبب تسميتها بهذا الاسم

ليس فى طبقات الشعراء من حيث عصور التاريخ خلاف قال كل مجمعون

على أنهم أربع طبقات جاهليون لم يدر كوا الاسلام كامرئ القيس أو أدركوه

ولم يقولوا فيه شعرا كلبيد ومخضرمون أدركوه وقالوا فيه شعرا كحسان

والخطيئة واسلاميون وهم من لم يدر كوا الجاهلية ونهايتهم آخر العصر الاموى

كالفرزدق وجريز والاخلط ثم مولدون وهم الذين اختلطوا بشعوب الامم
الاجرى من الفرس والروم والمصريين وغيرهم منذ الدولة العباسية إلى
ما شاء الله

ولكن الخلاف كبير في تقسيمهم من حيث الشعر والشهرة في كل عصر
من هذه العصور والذي يعنيننا الآن العصر الجاهلي وأقصد القول فيه ما كان
لأبي عبيدة معمر بن المثنى فقد جعله ثلاث طبقات وضع في أولها امرؤ القيس وزهير
والنابعة وفي ثانیتها الاعشى وليبدا وطرفة وفي ثالثتها عنتره وعمرو بن كلثوم
وعروة بن الورد ودريد بن الصمة والمرقس الأكبر وحاتم الطائي وكأنه
سكت عن طبقة رابعة يوضع فيها الحارث بن حنزة وسائر الشعراء وبذلك
تفهم طبقة كل واحد من رجال المعلقات. ولعل أطول تقسيم للطبقات ما فعل
ابن سلام فقد أوصلها إلى عشر غير شعراء المراثي وشعراء القرى العربية الخمس
وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين وغير شعراء اليهود في المدينة
وأكنافها ووضع في كل طبقة أربعة شعراء على ما في اتحاد العدد من تحكم لا يتفق
وطبيعة التقسيم فكان امرؤ القيس وزهير في الأولى ودعهما النابعة والاعشى
وكان لبید في الثالثة ومعه نابعة بنى جعدة وأبو ذؤيب الهذلي والشماخ بن
ضرار وكان طرفة في الرابعة ومعه عبيد بن الابرص وعلقمة بن عبدة النحل
وعدي بن زيد وكان عمرو بن كلثوم والحارث بن حنزة وعنتره في السادسة
ومعهم سويد بن أبي كاهل وليس فيما لم نذكر من باقي الطبقات وهي الثانية
والخامسة والسادسة والثامنة والتاسعة والعاشره أحد من رجال المعلقات

فابن سلام على طول تقسيمه يتفق مع أبي عبيدة في أن المقدمين على جميع
الشعراء أربعة هم امرؤ القيس وزهير والنابعة والاعشى وهذا الذي يكاد ينعقد

عليه الاجماع غير أن الخلاف في أيهم المقدم بالغ أشده فعلماء البصرة يقدمون
امراً القيس وأهل الكوفة يقدمون الاعشى والحجازيون يقدمون زهيراً
والنابعة والذي يجدر بالباحث اتبعه عدم الاعتداد بهذا الخلاف لأنه لفظي
أكثر منه في الصميم إذ لكل وجهة نظر تخالف وجهة الآخرين فمن احتج
لامرئ القيس نظر إلى سبقه في ابتداء أشياء استحسناها العرب واتبعه فيها

الشعراء كاستيقاف الأصحاب وبكاء الأطلال والأكثار من التغزل وتشبيهه

النساء بالبيض والظباء والخيل بالعقبان والوحوش وأنها قيد الأوابد وغير
هذا ومن احتج لزهير نظر إلى أنه أحكمهم شعراً وأبدعهم من السخف وأجمعهم
الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ وأنه كان لا يعاقل بين الكلام ولا
يتبع حوشيه وأنه مع بلوغه في المدح لم يمدح أحداً بغير ما هو فيه. ومن احتج
للباعدة قال إنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً
وكان شعره منشور لا تكلف فيه. أما أصحاب الاعشى فقالوا إنه أكثرهم
عروضا وأذهيهم في الشعر (فتونا وأكثرهم طويلاً جيدة ومدحاً وهجاء ونظراً
وصفة هكذا قال ابن سلام وذكر أنه شهد خلفاً وقد قيل له من أشعر الناس
فقال ما ينتهي هذا إلى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب
الناس وأجمل الناس

والذي عليه أكثر الرواة في المعلقة أنها كما جمعها حماد وأوردها الزوزني

سبع وهي بالترتيب قفانك لامرئ القيس ، نخولة أطلال لطرفة ، أمن أم
أوفى لزهير ، عفت الديار للبيد ، ألاهي لعمر بن كلثوم ، هل غادر الشعراء
لعنرة ، آذنتنا يمينها للحارث بن حلزة وقد جعلها صاحب الجهمزة ثمانياً باسقاط
ابن حلزة وزيادة النابعة فالاعشى بعد زهير ومعلقة الأول «عوجوا فحيوا لنعم

دمنة المدار» و«معلقة الثاني» ما بكاء الكبير بالاطلال» و«عدهم لبيد فعمرو فطرفة
فعنتره. أما التبريزي فجعلها عشرة. زيادة ثلاث على السبع اثنتين للنابعة والاعشى
كما فعل صاحب الجهرة ولكنهما «يادار مية بالعلياء فالسند» للنابعة، «ودع هريرة
ان الركب مرتحل» للاعشى ثم واحدة لعبيدهي «أقفر من أهله ملحوب» وقد
ألحق بها قصيدة ثانية للاعشى هي «ألم تغمض عينك ليلة أرمدا»

وفي سبب تسميتها بالمعلقات خلاف. فابن عبد ربه يقول إنه تعليقها على
الكعبة وهذا كلامه (وقد بلغ من كلف العرب بالشعر ونفسيها له أن عدت
سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة
وعلقها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهب امرئ القيس ومذهب زهير والمذاهب
سبع يقال لها المعلقات) وقد وافقه على ذلك ابن رشيق وابن خلدون إلا أن
الآخر لم يقيّد التعاق بالاستار ولا الكتابة بماء الذهب ولا في القباطي وقال
بقوله صاحب الخزانة

وأبو جعفر النحاس وكان معاصرا لابن عبد ربه ينكر التعليق على الكعبة
ويقول إنه لا يعرفه أحد من الرواة مستندا في ذلك على أن حمادا حين جمعها
قال هذه هي المشهورات فسميت القصائد المشهورة ولو كانت علقت على
الكعبة لأعطاهما هذا الاسم. وقد أخذ المستشرقون بهذا الرأي على زعم أنه
لم يوجد للتعليق أثر ولا ذكر حين تهدمت الكعبة وجددت على عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعلى زعم أن العرب لا تدنس الكعبة بتعليق أمثال شعر
امرئ القيس عليها ولكن هذين الزعمين ليسا بالداليلين القاطعين فان التبريزي
ليس ما تراه العرب في الشعر لما له عندهم من عظيم المكانة وهذا عبد الله بن عباس
على منزلته كان يجلس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع شعر

ابن أبي ربيعة فلا ينكر عليه ذلك وأما عدم وجود أثر أو ذكر فسببه أن التعليق لم يك دائما بل في فترات غير طويلة لا تعدو الموسم الذي قيلت فيه المعلقة وقد ذهب كل ذلك قبل الاسلام هذا على أن تعليق الاشياء الهامة على الكعبة كان من دأب العرب جاهلية واسلاما فقد علق قريش الصحيفة التي تأمرت فيها على قطيعة بنى هاشم وعلق الرشيد عهده بالخلافة للمؤمن والمؤمن.

والذين ينكرون هذا التعليق يتلمسون لهذه التسمية سببا غيره فمنهم من يقول ان الاشعار حينما كانت تنشد بهكاظ وتستحسن ببلغ ذلك ملك الخيرة فيقول علقوا لنا هذه بمعنى أثبتوها في خزائنا وقد روي أنه كان عند ملوك الخيرة ديوان مكتوب جمع فيه شعر الفحول على مارواه ابن سلام. ومنهم من يقول إن العرب كانت في الجاهلية اذا كتبت شيئا في الرقاع المستطيلة من الحرير أو الجلد أو نحوها خافت عليه قرض فأرة أو تأكل عثة طوته على عود أو خشبة وعلقتة في جدار البيت أو الخيمة بعيدا عن الارض ولحرصهم على المعلقات فعلوا بها ذلك فأخذت هذا الاسم

ذاك مجمل ما قيل في أسباب التسمية بالمعلقات وعندى أن أنتجها هو القول تعليقها على الكعبة والكن كما قال ابن خلدون والبغدادى لأن غيره لا ينهض بتلك التسمية على أية حال

٦ — منزلة المعانيات من الشعر الجاهلي

أما منزلتها من الشعر الجاهلي ففي الذروة من منازلها لما امتازت به من طول القافية وتنوع الاغراض وكثرة ما ابتكر فيها من ضروب المعاني والتشبيهات على ما لا سلوبها من القوة والمتانة وهذه نبذة عن مشتملات كل معلقة وبعض النماذج لهذه المشتملات تبين ما ذكرنا من ميزات

١ - معلقة امرئ القيس

سلك امرؤ القيس في معلقته مسلكا صور فيه حياته فأرانا كيف كان
يعيش لاهيا لاعبا قد أرخى لنفسه العنان الى غير حد فلم يتصنع في احساس
ولم يتستر وراء تعبير بل ترك بيانه طوع شعوره لاسلطان لعقله على هواه ولا
فكالك للسانه عما يريد وكل ذلك في أغراض متجانسة وأساليب يأخذ بعضها
بمحجز بعض

بدأها بخير مطلع عرف على غير مثال سابق هو الوقوف على الأطلال
للبيداء من ذكرى أحبابها الراحلين وقد تصور مرارة البين والفراق فوقف
أصحابه يؤسونه وهو لا يرى من شفاء في غير سفح العبرات قال
قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول
وقال

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل (١)
وقوفا بها صبحي على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وان شفاءى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
بهذا بدأ ثم انسل الى أن ذلك دأبه من أمى الحويرث والرباب وأخذ يصفهما
ويذكر أياما له معهما ومن ذلك خاص الى يوم الدارة مع فاطمة ابنة عمه
فأطال ماشاء وكان ختام محاورته معها ذلك العتاب

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
وان تك قد ساءت منك خليفة فسلى ثيابي من ثيابك تنسل (٢)
(١) السمر شجر ونقف الحنظل شقه عن حبه (٢) قيل ان المراد بالثياب هنا القلب

أغررك منى أن حبك قاتلى وانك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل^(١)
وكأنه عز على نفسه أن يكون الذليل أمامها فأخذ يريها عزته مع غيرها وكان
من ذلك ديبه الى ربة خدر هو ذو منزلة منها على ما أوتيت من منعة وجمال أخذ
يصف آياته ويعدد محاسنه الى أن قال

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممسى راهب مبتل
الى مثلها يرنو الحليم صبابة اذا ما اسبكرت بين درع ومجول^(٢)
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواها بمنسل
وقد دفع به الديب الذى كان ليلا حيث يقول

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل^(٣)
إلى ذكر الليل وطوله على ذوى الهموم فبلغ فى ذلك مبلغا كان آية الإعجاز
نقد
اسمع اليه يقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل^(٤)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الا صباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت يمدبل^(٥)
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان الى صم جندل^(٦)

-
- (١) السهمان هما المعلى بسبعة والرقيب بثلاثة وأخذها لا يبقى من أقسام البعير
شيئا لأنها عشرة (٢) اسبكرت استطالت والدرع ثوب الكبيرة والمجول ثوب
الجارية (٣) الاثناء الاوساط والمفصل الذى فصل بين خزره (٤) الصلب
الظهر والعجز المؤخر والكلكل الصدر (٥) مغار الفتل شديده ويمدبل جبل
(٦) مصامها سكونها والامراس الحبال

وهذا ليل قد أحياء ساهرا غير ليل الديب (والحديث ذو شجون) بقطع الاودية
سماعا لعواء الذئاب مشبها نفسه بها الى أن ولي فغدا الى الصيد بفرس أتى في
وصفه بما لم يسبقه اليه سابق ولا أدركه فيه لاحق قال

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل (١)
له أيطلا ظي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تنقل (٢)
وما إن عن له سرب حتى حمل عليه بفرسه الذي يقول فيه بعد أن أجاد نعته
فغادى عدا بين ثور ونعجة درا كاد ولم ينضح يما فيغسل
فضل طهارة اللحم من بين منضج صفيق شواء أو قدير معجل (٣)
وهكذا قضى يومه مع صحبه ثم راحوا وكانت العشيّة عشيّة برق ينذر بمطر
وابل لم يلبث أن هطل

فأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الاذقان دوح الكنهيل (٤)
ومر على القنان من نقيانه فأنزل منه العصم من كل منزل (٥)
ثم لم يترك جذع نخلة الا قعره ولا أطما الا جدله فغدا ثبير ورأس المجيمروها
جبلان كما قال

كان ثبيرا في عرانيه وبله كبير أناس في بجاد مزمل (٦)

(١) الدرير الدارواخذروف نخلة الصبي (٢) أيطلا الظبي خاصر تاه والسر حان
الذئب والتفتل الثعلب (٣) القدير ما يطبخ في القدر (٤) كتيفة موضع والكنهيل
شجر ودوحه عظيمه (٥) القنان جبل ونقيان المطر ما يتطير منه ومن زائده
(٦) ثبير جبل وعرانيه الوبل أوائلة ومزمل صفة لبجاد تجوزا

كأن ذرا رأس المجيمر غدوة من الـ ميل والغشاء فلـ مكة مغزل (١)
وما أجمل موازنته بين حالي المكاكي والسباع غب هذا السيل حيث يقول وبه
ختم المعلقة

كأن مسكاكي الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل (٢)
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى أنا يمش عنصل (٣)

٢ — معلقة طرفة

بدأ طرفة معلقته كما بدأ امرؤ القيس بالوقوف على الدمن وتذكر أهلها
الظاعنين واتفق معه لولا القافية في البيت

وقوفا بها صبحي على مطيهم يقولون لانهلك أسي وتجلد
والـ كنهه خالف في ذكر الهوادج وفي تشبيهها بالسفن وتشبيه حيازيم السفن

بيد المفايل قال

كأن حدوج الماـ كية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد (٤)
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدى (٥)
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد (٦)
ومنها انتقل الى التشبيب بفتاة تشبيها لم يطل فيه والـ كنهه أجاد وكان فيما قال

في الشعر والوجه

(١) المجيمر جبل والغشاء النبات وفـ مكة المغزل رأسه (٢) المكاكي نوع
من الطيور والسلاف الخمر والمفلفل المخلوط بالفلفل (٣) الانبوش الاصل
والعنصل البصل البري (٤) جمع حدج وهو مركب النساء والخلايا العظام والنواصف
المتسعات ودد واد عظيم (٥) نسبة الى عدول قبيلة بالبحرين وابن يامن رجل
(٦) الحباب الامواج والحيزوم الصدر والمفايل لآعب الفيال

وتبسم عن ألمى كأن منورا تخلل حر الرمل دعص له ندى (١)
سقطته أياة الشمس الا لثائه أسف ولم تكدم عليه بأتمد (٢)
ووجه كأن الشمس ألقترداءها عليه نقي اللون لم يتخذد (٣)
وكل ذلك لم يكن له بالمقصود فقد مر عليه مرا قضاء لحق المطالع عند العرب
ثم انتقل الى ما يريد وأوله وصف الناقة فسلخ فيه أربعة وثلاثين بيتا لم يترك
شيئا من أوصافها الحسية الا وفاه بدقة وحسن أداء ولا من ضروب سيرها
نوعا الا أجراه في لباقة ورصف كلام وكان آخر ما أفرغ عليها من صفة
جعله اياها أداة نجدته المستصرخين ولو لم يقصد ~~والمطل~~

على مثلها أمضى اذا قال صاحبي ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى
وجاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد
اذا القوم قالوا من فتى خلت أنى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ثم ذكر سيرها وشبهها متبخرة فيه بالوليدة ترى ربها أذبال ثوبها الطويل فكان
التشبيه الثالث والعشرين في الناقة مما انفرد به دون سائر الشعراء ومن ثم عد
من وصافي الابل المبرزين وقد وصل هذه المفخرة التي انتهى اليها في هذا
الوصف بمفاخر تنبيء عن صفاته وأحواله فذكر أنه فوق نجدته وطيب أرومته
تلقاه في حلقة السادة إذ تكون المقامة كما تصطاده في حوانيت اللاهين حين
اللهو قد توسط مداماه ومعه قينة تغنيهم وأن عشيرته لذلك قد تحامته ولكن
ذلك التحامى لم يطعن في بقائه معروفا للجميع قال

(١) الالمى الضارب الى السواد والمنور الاقحوان والدعص الكثيب
(٢) أياة الشمس شعاعها والكدم العض والاسفاف الخلط (٣) اتخذد
التشقق.

فان تبغنى في حلقة القوم تلقنى وان تلمسنى في الحوانيت تصطد
ندامى بيض كالنجوم وقيمة تروح اليها بين برد ومجسد (١)
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضمة المتجرد (٢)
اذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد (٣)
اذا رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردى (٤)
وما زال تشرابى الخمر ولذتي وبيعى وإنفاقى طريقى ومتملى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد (٥)
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ولا أهل هذا الطرف الممدد (٦)
فهذه نفسية طرفة اللاهى حللها لنا فى هذه الأبيات وأخذ بعدها يلوم من
يزجره أن يحضر الوغى ويشهد للذات مادام لا يستطيع عنه دفع المنون ويندكر
أن العيش لثلاث الخمر والنجدة والنساء ومن حرمها كان بخيلا لا يلبث أن
يترك ماله ويموت فلا يكون لقبره فضل على قبور الكرماء وهذا بعض ما قال
أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد (٧)
أرى الموت يعتام الكبار ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى كالأطول المرخى وثنياء فى اليد (٨)
هتى ما يشأ يوما يقده لحتفه ومن يك فى حبل المنية ينقد

(١) الجسد ما يلى الجسد أو ما صبع بالجسد وهو الزعفران (٢) أقطاب
الجيب مخرج الرأس منه (٣) المطروقة الضعيفة (٤) الأظآر ذوات الولد والربع
ابن الربيع (٥) المعبد المطلق بالقطران (٦) الغبراء الارض وبنوها الفقراء
والطراف البيت (٧) النحام السعال سمي به البخيل لانه يكثر سعاله اذا طلب منه
شيء (٨) الطول الحبل الذي يطال للدابة لترعى

ومن هنا خرج الى مالك ابن عمه يعاتبه على لوده اياه في طلبه حمولة أخيه
معبد واستعانت به في الطلب مع أنه فعل ذلك تقريبا للقربى مع قدرته على مقابلة

الجميل بجميل وفي هذا فاضت عاطفته بما نترك التعبير له حيث يقول

فلو كان مولاي امرأ هو غيره لفرج كربى أو لا نظرنى غدى
ولكن مولاي امرؤ هو خانقى على الشكر والتسأل أو انا مفتدى
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
فذرني وخلقي إننى لك شاكر ولو حل بيقى نائيا عند ضرغد (١)
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وزارنى بنون كرام سادة لمسود
على أنه لم يلبث أن سرى عن نفسه فاخرا بقوته وشجاعته وفتكه واغارته

بأبيات يقول فى أولها

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد (٢)
وفى آخرها على لسان من يقصد ابله فيغتصب منها ما شاء فيدعه خوفامته وفرقا
وقال ذروه انما نفعها له والا تكفوا قاصى البرك يزد (٣)
ذاك نحره بنفسه ومن كان هذا شأنه كان جديرا اذا مات أن يبكى ولذلك
ساق القول بعد الى ابنة عمه طالبا منها أن تنعاه بما هو أهله قال
فان مت فاعينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرى ليس همه كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى
ثم أخذ يجمال لها صفاته الى أن اختتم المعلقة بهذه الايات الثلاثة الخالدة

(١) ضرغد اسم جبل ناء (٢) الضرب الخفيف الجسم والخشاش الدخال (٣) البرك

الابل .

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد
ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود
ويأتيك بالاخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له كف موعد
هذه معلقة طرفة وهى على دارأيت منها شديدة الاسر قوية المعنى جيدة
التشبيه ذات أمثال سائرة وحكم بالغة ولذلك اعتبرت أجود المعلقات ولو كان
لطرفه من الشعر ما يقارب فى الكثرة شعر الاربعة المقدمين امرىء القيس وزهير
والنابغة والاعشى لوضع معهم كما قال أبو عبيدة أو لفضلهم جميعا كما قال
الكثيرون من الشعراء والرواة والادباء

٣ - معلقة زهير

لم يسبق زهير معلقته كما ساق زميلاه السابقان معلقتيهما لغير ما سبب ظاهر
سوى حفزة الشعر القاهرة تعبيراً عما فى النفس من ضروب الاحاسيس
والوجدانات بل قالها فى غرض معين هو مدح هرم بن سنان والحرث بن
عوف على تداركهما عبسا وذيان بالصلح بينهما فى حرب داحس والغبراء
وتحملهما فى ذلك على غير جناية منهم الكثير من الديات وتلك يد تقاس عظمتها
بما كان لتلك الحرب من شيوع ذكر وطول زمان واكتنه لم يجردھا فى ابتدائها
من ذكر الدمن والاطلال ووصف الطعائن اذا تحملن للاسفار فقد وقف على
الدمن وأطال هذا الوصف فأجاد ووقع له من خيار التشبيهات تشبيهان
حيث يقول

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادي الرس كاليد للقم
فلما وردن الماء زرقا جسمه وضعن عصي الحاضر المتخيم
كأن فئات العهن فى كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم (١)

ثم تركهم مقيمين الى ما أراد من تسجيل يد هرم وعوف فقال

سعى ساعيا غيظ بني مرة بعد ما تنزل ما بين العشيرة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرحهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سجيل ومبرم (٢)
تداركما عيسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٣)
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدن فيها من عقوق ومأثم
عظمين في عليا معد هديتا ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
وبعد أن أفاض فيما احتمله هذان السيدان من مفارم أصبحت مغام لذوى

الديات انتقل الى المتحالفين يسألهم الاخلاص للصالح ويحذرهم مغبة الحرب
واصفا سوء عواقبها وهو خير ما قيل فيها قال

ألا أبلغ الاحلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر يوم الحساب أو يجعل فينقم
وما الحرب الا ما علمتم وذقم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميعة وتضري اذا ضريتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحى بشفاها وتلمح كشافا ثم تنتج فتنتم (٤)

(١) تنزل اشتد واختلط (٢) السجيل المقتول على قوة واحدة والمبرم المقتول على
اثنين (٣) منشم امرأة تبع عطر التحالف أو رجل يبيع حنوط الميث (٤) ثفال
الرحى ما يبسط تحتها ليقع عليه الطحين وتلمح كشافا تحمل مرتين فى
السنة والانتام ولادة توأمين

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحر عاد ثم ترضع فتفطم (١)
 فتغفل لكم مالا تغل لا هلهيا قري بالعراق من قفيز ودرهم (٢)
 ولم يفته في هذا المقام أن يعيب على حصين بن ضمضم تخلفه عن الصالح على
 نية الاخذ بثأر أخيه وأن يحمي لمن ثار فيهم على بعد الوتر منهم قبولهم الدية
 احتراماً للصالح دون أن يجاروه القتال كما لم يفته أن يذكر قصد حصين على
 قوته وشدة بطشه وذلك قوله

لعمري لنعم الحى جر عليهم بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم
 وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم
 وقال سأقضى حاجتى ثم أتى عدوى بألف من ورأى ملجم
 فشدوا لم يفزع بيوتا كثيرة لدى حيث ألفت رحلها أم قشعم (٣)
 لدى أسد شاكى السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم
 جرى متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا والا يبد بالظلم يظلم
 وكان زهيرا صفت نفسه وقد عاج هذا كله فأمدته روحانيته بتلك الحكم الفذة
 الكثيرة التى ختم بها معلقته فكانت فى بابها أبلغ دلائل على أن الفطرة إذا
 صفت أدركت ما يقف العقل أمامه حائرا لا يدري كيف كان لها إليه السبيل
 وهاهى ذى

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
 وأعلم علم اليوم والامس قبله ولا كئنى عن علم ما فى غدعم

(١) المراد بأحر عاد أحر ثمود لأنه العاقر (٢) يقصد بقوله من قفيز ودرهم أن الدراهم تكال بالقفيز (٣) أم قشعم المنية والقشعم النسب يأتي
 وراءها ليأكل من القتلى

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطيء يعمر فيهم
 ومن هاب أسباب المنايا ينلته وان يرق أسباب السماء بسلم
 ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمسسم
 ومن يعص أطراف الزجاج فانه يطبع العوالي ركبت كل لهزم (١)
 ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
 ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
 ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويندم
 ومن يوف لا يندم ومن يهد قابه الى مطمئن البر لا يتجمعجم (٢)
 ومن يجمل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
 ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
 ومهما تكن عند امرى من خليفة وان خالها تخفى على الناس تعلم
 وكائن تري من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
 اسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

١ حلق ٤ - معلقة لبئد

جاءت معلقة لبئد قطعة صادقة في تصوير البادية أصدق تصوير من النواحي
 التي قصد اليها فانه بدأها بذكر الدمن في عفائها وكيف تحولت الى مراعى
 عشب ونبات ومراعى طباء ونعام واسكنها مع هذا قد جللت أطلالها السيول
 فوقف يسألها وبقيت هي صما خوالد لا تبين فجاوزها الى تذكر أهلها الراحلين
 (١) الزجاج جمع زج وهي الحديدة في أسفل الرمح واللهزم السنان في عاليته

(٢) التجمعجم الترحرح

وأخذ يصف الظعن وبتذكر نوار والكنه عاد يقول لنفسه وما تتذكر من

نوار وقد نأت الى ديار لأمل مع بعدها في لقاء

ومن جميل التشبيه في بعض ما تقدم قوله :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها (١)

أو رجع واشمة أسف نؤورها كنفها تعرض فوقهن وشامها (٢)

وقد أخذ على نوار اغالها في رحلتها وأعلن عزمه على قطع لبايتها بأبياتها التي
يقول فيها

فاقطع لباينة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها

واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق اذا ظلت وزاغ قوامها (٣)

بطليح أسفار تركن بقية منها فأحرق صليبها وسنامها (٤)

ثم اندفع يصف النافذة ويظيل ولكنه حاد عن جعل الوصف في جسمها فجعله
في سيرها وأخذ يشبهها في سرعتها تارة بالسحابة الجاهم تطردها ريح الجنوب
وأخرى بأتان ملمع حملت من أحقب غيور وامتنعت عليه فراه أمرها
وعلا بها حذب الآكام حتى اذا سلخا الشتاء بهيدين عن الماء وهبت ريح
الصيف اشتد بهما الظمأ ففزعا الى الورود وانحدرا الى النهر انحدارا كان له
غبار كدخان نار أوقدت اليابس والرطب من النبات . وثالثة ببقرة وحشية
أكل السمع فريرها فأخذت تبحث عنه سبعا كاملة الايام حتى اذا يئست وجف

(١) جمع زبور وهو الكتاب والمتون السطور (٢) النور النقش المتخذ من

دخان السراج والنار والنقش المداد (٣) الكنف بكسر الكاف جمع كفة بالكسر

وهي الدارة وكل مستدير وبالضم جمع كفة مضمومة لكل مستطيل وأسف

زبر وتعرض ظهر (٤) ظلت عرجت يقصد الصحبة والطليح المعبي وأحرق ضمير

ضرعها أحست صوت رماة أرسلوا خلفها الكلاب فكان لها عدو للنجاة شديد
فذلك حيث يقول

وإذا تغالى لجمها وتحسرت وتقطت بعد الكلال خدامها (١)
فلها هباب في الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها (٢)
أو ملمع حملت لا تحقب للاحه طرد الفحول وضربها وكدامها (٣)
يعلو بها حذب الآكام مسجج قد رابه عصيانها ووحامها (٤)
إلى آخر ما قال في الاثنان ثم أعقبه بقوله في البقرة

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوارقوامها (٥)
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها (٦)
علمت تردد في نهاء صمائد سبعا نؤاما كاملا أيامها (٧)
حتى إذا يئست وأسحق خالق لم يبيله ارضاعها وفطامها (٨)
وتوجست رز الانيس فراعها عن ظهر غيب والانيس سقامها (٩)
فعدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها (١٠)
وبعد هذه الاطالة في وصف الناقة وسيرها أخذ يفتخر على النوار بأنه قضاء

(١) تغالى ارتفع والخدام جمع خدمة وهى السير (٢) الهباب النشاط
والصهباء السحابة الحمراء (٣) الملمع الاثنان المشرقة أطباؤها بالبن ووسقت
حملت والاحقب العير فى وركيه بياض ولاحه غيره (٤) المسجج المخدش من
العض (٥) المسبوعة التى أكل السبع ولدها الذى خذلته بتركه واتباع مقدم
الصوار وهو القطيع (٦) الفرير الولد ولم يرم لم يبرح والبغام الصوت (٧) علمت
انهمكت وصمائد موضع ونهاؤه غدرانها واحدا نهي (٨) الخاق الضرع
وأسحق ذهب لبنه بجفافه (٩) الرز الصوت (١٠) مولى المخافة موضعها

لبانات وصال قطاع يعاف مالا يرضى من الديار وأنه سمار ليال غلاء سباء
وزاع لغدوات الشمال وأنه يحمى الحى فيرتقى بفرسه المرتفعات في منباج الصباح
فاذا ما أمسى أسهل وفرسه لا يزال منتصباً للحراسة في البيات وأنه مع هذا
حلال مشكلات في المجامع والمقامات نحار بالقداح لجزر الايسار يدعو بهن
لذوى الحاجات والضيغان ممن يأوون الى أطنا به فيجدون الخصب والثراء وهذا
بعض ما قل

فبتلك اذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب أكامها (١)
أقضى اللبانة لأفرط ريبة أو أن يلوم بحاجة لوامها
أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبال جدامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها
أغلى السباء بكل أدكن عاتق أوجونة قدحت وفض ختامها (٢)
وغداة ربح قد وزعت وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها (٣)
ولقد حميت الحى تحمل شكتى فرط وشاحى إذا غدوت لجامها (٤)
وكثيرة غرباؤها مجهولة ترجى نوافلها ويخشى ذامها (٥)
أنكرت باطلها وبؤت بحقها عندى ولم يفخر على كرامها
وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها (٦)

(١) يقصد لوامع السراب واجتاب الاكام أرديته لبسها أى احتدمت
الهواجر (٢) السباء شراء الخمر والادكن العاتق وصفان للزق والوجونة الخمايية
السوداء وقدحت ملئت منها القداح (٣) وزعت دفعت بالنحر (٤) الفرط الفرس
المتقدمة السريعة (٥) يقصد الدار تقوم فيها المقامة (٦) الايسار أصحاب الميسر
واحد هم يسر والمغالق السهام واحدها مغلاق

أدعوهن لعاقراً أو مطلقاً بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنب كأنما هبطاً تبالة مخصباً أهضامها
ذاك نخره بنفسه وقد أعقبه فخره بقومه ينسبهم إلى سيادة المحافل وحسن
سياسة العشيرة وأن تلك سجايا فيهم يجدر بالحاسد ألا يطمع فيها لأنها حياء
لهم من المليك لما جبالوا عليه من معالي الأمور قال

إنا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جشامها (١)

ومقسم يعطى العشيرة حقها ومغذ مر لحقوقها هضامها (٢)

فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب رغائب غنامها

من معشر سنت لهم آباؤهم ولا كل قوم سنة وامامها

لا يطبعون ولا يبور فعالمهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها

ثم التفت يخاطب الطامع في مثل مكانتهم بقوله

فاقنع بما قسم المليك فانما قسم الخلائق بيننا علامها

وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأوفر حظنا قسامها

فبني لنا بيتاً رفيعاً سمكه فسما إليه كهلها وغلماها

إلى أن ختم المعلقة بأبيات أخر يحمل فيها ما عرفوا به من مكارم الاخلاق

هـ - معلقة عمرو بن كلثوم

خالف عمرو رجال المعلقة فلم يبدأ معلقته بذكر الدهن والديار وتعرف

الآثار والاطلال إنما بدأها بوصف الخمر وتأثيرها والدعوة إلى الاستصباح

بها وانتهابها ولكنه لم ينس أن يستوقف الظعينة قبل التفرق لتخبره هل أحدثت

(١) لزاز العظيمة قرينها (٢) المغذ مر الغضوب لاجل حقوق العشيرة

الهضام لحقوق نفسه

صرما وقطعا ويخبرها بما له أيام الكريمة من بلاء يقر العيون ثم أخذ يصف
وجوه محاسنها ووجدته يرافقها في أبيات طويلة أنهي بها تشبيب قصيدته
قال في مبدئها

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الاندرينا (١)
مشعشة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)

وقال

قفي قبل التفرق يا طعمينا نخبرك اليقين وتخبرينا
قفي نسألك هل أحدث صرما لو شك البين أم خنت الامينا

وقال

تريك اذا دخت على خلاء وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعى عيطل أدماء بكر هيجان اللون لم تقرأ جنينا (٣)

إلى آخر ما وصف ثم قال

فما وجدت كوجدى أم سقب أضلته فرجعت الحنينا (٤)
ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة الا جنينا

وبعدئذ خرج الى الغرض الذى من أجله قرض المعاقبة وهو التناخر بقتله

عمرو بن هند في حادث يذكر له الرواة قصصا وحكايات ولا يعدو عندي أن
يكون هذا القتل وقع باتفاق بينه وبين البيت المالك لما كان من طول الحكم لعمرو

(١) الاندرون قري بالشام (٢) المشعشة المزوجة والحص نبت أحمر

النور (٣) العيطل الطويلة العنق من النوق والادمة فى الابل البياض و لذا

الهيئة ولم تقرأ لم تحمل (٤) السقب ولد الناقة قبل فصاله

وشدة عسفه بأمله ولذلك أسدلوا الستار عليه فلم يشنوا حربا ولم يطالبوا بثأر
 وإنما اختير ابن كلثوم لأنه رئيس تغلب وكثيرا مغاضبها ابن هند وظاهر
 بكرها عليها كما حدث بعد سماعه معلقة ابن حلزة على ما سيأتى فى بعض ما كان
 بينهما من خلاف على أنى إذا لم أجزم بهذا الاتفاق فلا أقل من أن أقول لقد
 وقع القتل على قلوب المناذرة بردا وسلاما وبخاصة صاحب التاج من بعده وهو
 أخوه النعمان هذا وقتل بدأ ابن كلثوم نغره بمخاطبة الملك القتيلى سخرية وتهكما
 خطابا يذكره فيه بأيام لهم غر طوال وبقدمهم منذ القدم فى الحروب وعركهم
 من يتعرض لهم وحمايتهم من يستجير بهم وأمنهم لم يعاملوه بغير ما عاملوا به الملوك
 من عصيان وخروج منذ أيام خزازى الى حيث قتلوه وكان ذلك منه فى أكثر
 من خمسين بيتا هذا بعضها

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيننا
 بأنا نورد الرايات بيضا ونسدرهن حمرا قد روينا
 وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا

الى أن قال

مى ننقل الى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحيننا
 يكون ثقلها شرقى نجد ولهوتها قضاة أجمعينا (١)

والى أن قال

ألا لا يعلم الاقوام أنا تضعضعنا وأنا قد ونيينا
 ألا لا يجهل أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهليينا

(١) ثقال الرحى ما يسط تحتها ولهوتها القبضة من الحب تلقى فيها

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا (١)
 بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
 تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لامك مقتويننا (٢)
 فان قناتنا يا عمرو أعيت على الاعداء قبلك أن تليتنا
 اذا عض الثفاف بها اشمازت وولته عشوزنة زبونا (٣)
 عشوزنة إذا اقلبت أرنت تشيح قنما المتقف والجبيننا

ثم أخذ يفخر برجالهم الاقدمين ويهدد ما آثرهم وأيامهم مشركا معهم بنى عمهم
 بكر واسكنه لم يرض أن يكونوا مثلهم في هذه الفاخر قال

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافديننا (٤)
 وكنا الايمنين اذا التقينا وكان الايسرين بنو أبنينا
 فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
 فآبوا بالنها وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفديننا

ومن هنا أخذ يفخر على بكر ويذكرهم بما كان لهم عليهم من غلاب وقد أجاد
 حيث يعالج ذلك وصف الدروع والنساء وراء الخيل يوم الروع قال

علينا كل سابعة دلاص ترى فوق النطاق لها غضونا (٥)
 اذا وضعت عن الابطال يوما رأيت لها جلود القوم جونا
 كأن غضونهم متون غدر تصفقهما الرياح اذا جرينا

(١) القطين الخدم (٢) المقتوون جمع مقتوى بطرح ياء النسبة نسبة الى
 المقتى وهو المصدر الميمي لقتا يقتو اذا خدم الملوك (٣) العشوزنة الصلبة الشديدة
 والزبون الدفوع (٤) خزازى جبل ويقصد يوما كان عنده بين نزار ويعن
 (٥) السابعة الدرع التامة والدلاص البراقة والغضون التشجعات جمع غضن

وتحملنا غداة الروع جرد عرفن لنا نقائد وافتائنا (١)

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أوتونا

أخذن على بعولتهن عهدا إذا لاقوا كتاب معلمينا

ليستبين أفراسا وبيضا وأسرى في الحديد مقريننا

إذا مارحن يمشين الهوينى كما اضطربت متون الشاريننا

يقتن جيادنا ويقان لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

إذا لم نحملهن فلا بقينا لشيء بهدمن ولا حييننا

ذاك نخره وقد رأى أن يدعمه بأنه معروف لقبائل معد فكلمها تعترف لهم يوم

الفيخار بكرمهم وفتكهم وعزتهم وإبائهم ومن ثم عاد إلى مثل ما بدأ به مع ابن هند

فكان ختام المعلقة قال

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنا المطمعون إذا قدرنا وأنا المهدكون إذا ابتليننا

وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا

وأنا التاركون إذا سخطنا وأنا الآخذون إذا رضينا

وأنا العاصمون إذا أطعنا ^{دور العرام وهو العرام} وأنا العارمون إذا عصينا (٢)

ونشرب أن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ثم قال

إذا ما الملك سام الناس خسفا أئينا أن نقر الذل فينا

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبتش حين نبتش قادرينا

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما نخر له الجبابر ساجديننا

(١) النقائد ما أنقذت من أيدي الأعداء وانتلاؤها لإلادها (٢) العارمون

ذوو العرام وهو الحدة

٦ — معلقة عنتره

جاءت معلقة عنتره لغير غرض خاص كما جاءت معلقات امرئ القيس
وطرفة ولييد وقد بدأها بما بدعوا به فوقف على الاطلال وخاطب الديار كما
هي سنة الشعراء ثم أبان أنه يخاطب دار عبلة وأخذ يستوحيها الجواب ويصف
صاحبها قال

يادار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صبا حادار عبلة واسلمى (١)
دار لانس غضيض طرفها طوع العناق لذبة المتبسم
وعاد ثانية يستوقف الناقة على طال عبلة ويحييه ويستبعد الديار التي حلت بها
ويعجب كيف يكون المزار ثم خلاص من هذا الى وصف ما لعبلة من حسن ثغر
وطيب مقبل فأجاد قال

إذ تستبيك بذى غروب واضح ^{جمع غروب وهو الهم} عذب مقبله لذيد المطعم (٢)
وكان فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها اليك من النعم (٣)
أوروضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم (٤)
جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكبا فكل عشية يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس يبارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الا جذم (٥)
وبعد هذا التشبيه الطويل عاد الى عبلة يذكر تنعمها على الوثير من الفراش

(١) الجواء موضع بعينة (٢) الغروب جمع غروب وهو الحد (٣) فارة المسك
آنيته لانه يفور منها والتقسيمه الحسنة التقاسيم (٤) الانف التي لم ترع وتضمن
سقى (٥) هزجا مصوتا والاجذم الناقص اليد

بينما هو على سرج فرسه وأخذ يتمنى أن تبلغه أياها شذنية غير ولود وانساق
يصف هذه الناقة ويشبهها بالظالم تأوى له قلعص النعام كأنه العبد الاصلم
ذوالقرو الطويل وما أبين قوله إذ يذكر اندفاعها في سيرها

وكانما تنأى بجانب دفها ال وحشى من هزج العشى مؤوم (١)
هر جنيب كلما عرضت له غضبي اتقاها باليدين وبالقم
وما انتهى من صفة الناقة حتى أوغل فيما هو قصده في معلقته من ذكر فروسيته
وبطولته وبدأه بقوله لعبلة لا تغد في دوني القناع فان من يأخذ القمارس
المستأنم مثلى جدير أن يحوزك وينال منك الثناء بما هو أهله فاني سمح المخالطة
هر المذاقة شراب مدام لا يمنع الصبحو كرمي ولا تنال النشوة عرضى
فاذا شربت فاني مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمي
وهذا معنى لم يحار فيه وقد أخذ بعده يعد مواقف بطولته فيقول كم من حليل
غانية ولا يحل لها الا البطل قد جندلته ومدجج كره الكماة نزاله قد طعنته وحامى
حقيقة معلم بمهندي قد علوته ولم ينس في هذه المواقف الثلاثة من حماسته أن

يخالطها بنسيبه في عبلة كما هو دأبه. قال في أولها

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
ينخبرك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغم
ويقول في نهايتها

ياشاة ما قنص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

(١) الدف الجنب والوحشى الايمن لانه لا يركب منه. والمؤوم القبيح الرأس

فبعثت جاريتي فقات لها اذهبي وتجسسي أخبارها لي واعلمي
 قالت رأيت من الاعادى غرة والشاة ممكنة لمن هو مرتضى
 وكأنا التفتت بجيد جداية رشاً من الغزلان حر أرشم (١)
 وعاد من هذا الى ذكر مواقفه ناعيا على من لا يشكر نعمته جحود فضله
 وذاكرا أنه حريص على وصاة عمه بالشبات في أخرج المضايق فكان منه في الكلام
 عن فرسه هنا ابداع ليس بعده منال قال

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتدامرون كررت غير مذمم (٢)
 يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بر في لبان الادهم (٣)
 مازلت أرميهم بشجرة نحرة ولبانه حتى تسربل بالدم
 فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم (٤)
 لو كان يدري ما المحاررة اشتكى ولا كان لو علم الكلام مكلمى
 وزاد ذلك منه نبلا وكرما أن جعل في نداء الفوارس له بالاقدام في الشدائد
 ما يشفى نفسه ويبرىء سقمه قال

ولقد شفى النفس وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدمى
 ثم ختم المعلقة بخشيته الموت قبل أن ينال من ابني ضمضم لتوعدهما اياه بعد قتله
 أباهما قال

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم (٥)
 الشامي عرضي ولم أشتمهما والناذرين اذا لم آلقهما دمي
 إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسرقشعم (٦)

(١) الجداية ولد الظبية والرشا القوى والارشم الذى في شفته العليا وأنفه
 بياض (٢) يتدامرون يتحاضون على القتال (٣) أشطان البر حباله واللبان الصدر
 (٤) ازور مال وتحمحم الفرس صهيله بخنين (٥) هما حصين وهرم (٦) القشعم المسن

٧ — معلقة الحارث ابن حلزة

قيلت هذه المعلقة لغرض خاص هو استمالة عمرو بن هند الى بكر والحارث
منها في مقاضاة كانت عنده بينها وبين تغلب قوم عمرو بن كانوا قاتل ابن هند
كما سبق وقد احتذى حذو الشعراء في بدئها فأبدى تحرقه على بن أسماء وأخذ
يذكر عهدا السالف ومكانها النائي فيبكي وما يحير البكاء قال

أذنتنا بيمينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

بعد عهد لنا ببرقة شما ء فأدنى ديارها الخلاء (١)

لا أرى من عهدت فيها فأبكي ال يوم دلهما وما يحير البكاء (٢)

وأردف ذلك بذكر الناقة يستعين بها على الهم ويصفها وقد بلغ في ذلك ما أراد

في ايجاز وحسبك قوله

غير أنى قد أستعين على الهم م اذا خف بالثوى النجاء (٣)

بزفوف كأنها هقلة أم م رثال دوية سقفاء (٤)

آنست نبأة وأفزعا القن ناص عصرا وقد دنا الامساء

فترى خلفها من الرجوع والوق مع منينا كأنه أهباء (٥)

ومن هنا انتقل الى موضوع المعلقة فبدأ يصف ظلم بني عمهم إياهم وتبئيتهم لهم
الشر وقد أجاد في وصف التبيؤ للحرب ماشاءت له الاجادة حيث يقول

(١) العهد اللقاء (٢) الدله ذهاب العقل وما يحير ما يرجع (٣) الهم ما يهيم به

(٤) الزفوف السريعة والهقلة النعامة والدوية نسبة الى الدو وهو الصحراء

والسقفاء الطويلة مع انحناء (٥) المنين الغبار الرقيق والاهباء جمع هباء وهو ما تطاير

وانبث

وأنا من الحوادث والا : باء خطب نعى به ونساء
 أن اخواننا الاراقم يغلو ن علينا في قياهم إحقاء (١)
 يخلطون البرى منا بذى الذب ب ولا ينفع انالى الخلاء
 زعموا أن كل من ضرب اله ير موال لنا وأنا الولاء (٢)
 أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
 من مناد ومن مجيب ومن تصه بهال خيل خلال ذاك رغاء

ثم أخذ يخاطب من وشى بهم الى عمرو بن هند بأنهم واثقون من عدل الملك
 على أنهم غير خائمين وقديما وشى بهم فكانت ما نعتهم حصونهم وهذا إذ يقول
 أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو وهل لذك بقاء (٣)
 ملك مقسط وأفضل من شى ومن دون مالدیه الشناء (٤)
 لا تخلنا على غراتك إنا قبل ماقد وشى بنا الاعداء (٥)
 فبقينا على الشناءة تاهم حيننا حصون وعزة قعساء (٦)
 وأتبع هذا بأنهم مع قدرتهم ذوو أهبة لقبول أية خطة فى الصالح تراد وأنهم
 أكفاء لمقابلة ما يطلب منهم بمثله وأخذ يذكر ماضيهم تأييداً لما يقول قال
 أيما خطة أردتم فادو ها الينا تمشى بها الاملاء (٧)

وبعد أن بين أنواع الخطط فى أبيات له أعقبها بقوله

هل علمتم أيام ينتهب الناس غوارا لكل حى عواء (٨)

(١) الاراقم لقب لبطون من تغلب والاحقواء الاحاح (٢) الغير هذا السيد والمراد
 كليب وضربه الرضا بقتله وقوله وأنا الولاء أى أصحاب الولاء (٣) المرقش
 المريب المشكك (٤) المقسط العادل والقاسط الجائر (٥) الغرارة الاغراء
 (٦) تنمينا ترفعنا (٧) الاملاء جماعات الاشراف جمع ملاء (٨) الغوار المغاورة

إذ ركبنا الجمال من سعف البحر ربن سيرا حتى نهاها الحساء
ثم ملنا على تميم فاحرم بنا وفيها بنات مر إماء (١)
لا يقيم العزى بالبلد السهل ولا ينفع الذليل النجاء
ثم عاد الى المبلغ عنهم ثانية يذكره بأن لهم على عمرو بن هند ثلاث آيات
ردهم قيس بن معد يكرب الحميري عنه وقد غزا الحيرة في معد كلها وكذا حجير بن
أم قطام وقد غزاها أيضا في فارسية خضراء . وآية فكهم غل امرئ القيس
اللخمي من الغساسنة وإقادتهم بأبيه المنذر إذ قتلوه من ربههم والثالثة أنه ابن
اختهم فأمه منهم وهم قد ولدوه وفي ذلك يقول

أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو وهل لذلك انتهاء
من لنا عنده من الخير آيات ثلاث في كلهن القضاء
آية شارق الشقيقة إذ جاءوا جميعا لكل حي لواء (٢)
حول قيس مستلتمين بكيش قرطى كأنه عبلاء (٣)
فرددناهم بطعن كما ينحرج من خرتة المزاد الماء (٤)
ثم حجرا أعنى ابن أم قطام وله فارسية خضراء (٥)
وفككتنا غل امرئ القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء (٦)

(١) أحر مناد خلنا في الأشهر الحرم (٢) الشقيقة أرض صلبة بين رملتين
وشارق مضى وهى من إضافة الصفة الى الموصوف والمراد اسم مكان كانت
به الموقعة (٣) يريد قيس بن معد يكرب الملك الحميري والكيش السيد والقرطى
كنية عن أنه شديد الوطأة لان القرط شجر يدبغ الاديم والعبلاء الهضبة
البيضاء (٤) المزاد الزقاق وخرتها ثقبها (٥) هو والد امرئ القيس (٦) يقصد
أحد اللخميين لا امرأ القيس بن حجير

وأقده رب غسان بالمنة نذر كرها إذ لا تكال الدماء (١)
 وولدتا عمرو بن أم أياس من قريب لما أتانا الحباء (٢)
 ثم عاد الى تغلب يطلب اليهم أن يتركوا التكبر والتعالي ويدكروا حلف ذي المجاز
 وما قدم فيه من عهدودو كفله من كفلاء حذر الجور والتعدي مثل ما يدكرونهم قال
 فاطر كوا الطيخ والتعاشي وإما تتعاشوا ففي التعاشي الداء (٣)
 واذكروا حلف ذي المجاز وما قد دم فيه العهدود وال كفلاء (٤)
 حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهارق الا هواء (٥)
 واعلموا أننا وإياكم في ما اشتطنا يوم اختلفنا سواء
 وبعدئذ أخذ يعيرهم بجنائيات غيرهم عليهم وأنه لا يحمل بهم أن يحملوهم جرمهم
 فيقول

أعلينا جناح كندة أن يغـ-----نم غازيهم ومنا الجزاء
 وهكذا أكثر التعداد حتى ختم المعلقة بتغلبهم عليهم يوم الخيارين كيلا
 يظنوا فيهم ضعفا أو أنهم ليسوا كهؤلاء مستشهدا على ذلك اليوم بالرب وهو
 الملك حيث يقول

وهو الرب والشهيد على يوم الخيارين والبلاء بلاء (٦)

(١) رب غسان ما كها (٢) الحباء المهر (٣) الطيخ التكبر والتعاشي التعالي
 (٤) ذو المجاز موضع أصلح فيه عمرو بن هند بين بكر وتغلب (٥) جمع مهرق
 وهو خرقة تطلى وتضمقل ليكتب عليها (٦) كان لبكر على تغلب ويقصد بالرب
 عمرو بن هند

مميزات الكلام الجاهلي

إن لكلام الجاهليين سمات عامة تتناول النثر والشعر معا وأخرى خاصة
بكل منهما

أولا - المميزات العامة

فالعامية يراها المطلع عليه في عباراته ومعانيه والغرض العام الذي يرمى إليه
وهاهي ذى

١ - في العبارات

أول ما يلاحظ على عباراته خلوها من اللحن لتمكن السليقة فيهم
وقلة اختلاطهم بغيرهم وليس معنى هذا أنه لم يك من أحدهم خروج على المصطلح
العام بل معناه أن ذلك الخروج كان قليلا وعن غير الصميم وهو ما سمي بالشاذ
والمسموع بخلاف الخروج في العصور الإسلامية بعد فقد كثير وعارض الاسس
ولذلك لم يحجم واضعو أصول العربية عن تسميته لحنا وخطأ مفرقين في
التسميه بين النوعين

ثانيا - خلوها من الدخيل وسببه سبب عدم اللحن غير أن اختلاطهم
بمن جاورهم من الامم بعض الاختلاط بحكم الجوار جعلهم يأخذون من لغاتها
وبخاصة الفارسية كلمات أدخلوها كلامهم ولكنهم أحدثوا فيها صفلا فربها
من لغتهم وأعطائها جرسها فأصبحت كأن لم تك غريبة عنها ولذلك لم يطلق
عليها اسم المعرب كما اطلق على ما اقتبس بعد

ثالثا - ايجازها فقد كانوا يرون البلاغة في الايجاز . وإذا كانوا فرسانها
الابوائل فقد قدروا على تحقيق مارأوا دون اخلال بالمعاني ولا بما قصدوا

اليه من أغراض ولهذا كانوا يفضلون من الجمل القصير واذا خرجوا عنه فالى
المتوسط لا الطويل

رابعا — ارسلها على ما تقتضى البلاغة القطرية دون تكلف فيها ولا مراعاة
لما أتت به الصناعات اللفظية بعد فقلا يرى لهم تأنيق في انتقاء ألفاظ متناسبة
الوزن متشابهة النغم أو صوغ عبارات ذات جناس أو طباق أو غيرها من
محسنات البديع الا ما أتى عفوا غير مقصود

خامسا — اشتملها على كثير من الالفاظ المترادفة على القول بأن هناك
ترادفا حقيقيا جاء من اختلاط القبائل وتعرف بعضها لغات بعض أما على أنه
لاترادف في الواقع وأن لكل مرادف خصوصية كانت تعرفها العرب له على
مرادفه وأنا نسبنا ذلك نحن فلا ترادف الا من حيث الظاهر فقط وهى على
كلتا الحالتين لا تخرج عن أن تسمى خاصة ومميزا

ب — فى المعاني

كانت المعاني فى الجاهلية قاصرة على الحقيقية واذا جاوزتها الى غيرها فالى
المجاز ذى العلاقة البارزة التى لم يلبث معها طويلا حتى صار حقيقة فى كثير من
الالفاظ . أو إلى الكناية قليلة الوسائط مع قرب المثل أو كثيرتها مع شدة
اللزوم اللهم الا ما كان رمزا مقصودا وكثيرا ما كانوا يعتمدون فى الكناية
الى التعريض اتقاء التصريح بما يستهجن أو غيره لسبب ما فلا يقع فى ذلك
فحش ولا خفاء . وكانوا اذا تخيلوا لا يخرجون فى ذلك عن الخيال المنزع
الصورة من الحس الظاهر والواقع فى دائرة الامكان العادى أو العقلي الا ما قصدوا
فيه الى هذا الخروج كخيالهم فى موارد الامثال الفرضية وبعض الاوابد

ج — فى الغرض العام

أما الغرض العام الذى يرمى اليه فكان يدور حول ما تقتضيه البداوة

والفطرة الخاليتان من تكلف أهل الحضر وتأنيقهم ويكاد ذلك ينحصر في وصف المعيشة البدوية ومرافقها من حل وترحال واستدار غيث وانتجاع كلاء واستنبات نبت ونتج حيوان وفي إثارة المنازعات والمشاحنات وما تجر إليه من حش على ادراك ثار وقول في نهى ميت وتفاخر بمال وولد وتباه بشجاعة وانتصار وتشرف بكرم محند وحوز فضيلة ثم في وصف ما يشاهد بجزيرتهم والاخبار عما يقع فيها بما يناسب بيئتهم ويتفق وطبعهم

ثانياً — المميزات الخاصة

١ — في النثر

يمتاز النثر الجاهلي فوق ما تقدم في المميزات العامة بما يأتي أولاً بحجى السجع فيما أثر منه أكثر من الازدواج والازدواج أكثر من الترسل وإنما قلنا فيما أثر لأن طبيعة صدور الكلام تأتي إلا أن يكون الواقع العكس وإنما علق المسجوع بالاذهان أكثر من أخويه كما تقدم لسهولة حفظه ولأنه كان المقصود في مهام الأمور على أنه قد كانت هناك طائفة لا تتكلم إلا المسجوع هي طائفة السكينة والعرافين لما للسجع من جمال الوقع على الأسماع وشدة التأثير في القلوب وهذا ما يريدون وقد انقضت هذه الطائفة بالاسلام وكان أكثر الكلام ترسلاً ووليه الازدواج ثم السجع فكانت الحال معاكسة لما أثر أو موافقة لما كان في الحق هو الواقع

ثانياً — كثرة أمثاله بنوعها وحجى حكمه كثيرة وعلى مقتضى الفطرة أيضاً فإن الأمثال تكاد تكون قاصرة على العهد الجاهلي وما جاء بعد لا يعدو حد القلة وأغلبه على صيغة أفعل . والحكم لا تكاد تحوي تعمقاً في فكرة

أو اغراقاً في فلسفة لما كانت عليه العرب من حال بدواة لا تعمق فيها لعلم ولا
زخرف لحضارة وإنما ساعدها على الاكثار من هذين النوعين رجحان عقولها
وسلامة فطرها مع تمام كمالها زمام الفصاحة وافتدارها على الالجاز

ثالثاً — تفرد به بالمنافرة على معناها الجاهلي فمأعرفت في الاسلام منافرات
فرضت فيها الجعول وهرع من أجلها المتنافران الى الحكم وكذا بالمفاخرة فيما
نهى عنه الدين بعد وهو أكثر ما كان في هذا الباب فقد صار جل تفاخر المسلمين
بالدين والتقوى وما يقدم من صالح الأعمال للأفراد والجماعات الى غير ذلك مما
يخص عليه الدين

رابعاً — اختلافه في الأغراض العامة لخطبه ووصاياه عما كان بعد
فقد بقيت الخطب والوصايا في عهود الاسلام الى وقت طويل ولاكن التبديل
الكبير للعرب في الدين والسياسة والمعيشة والاجتماع باين كل المباعدة في هذه
الأغراض فمات بعضها كشن الغارات والاخذ بالثأر وحلت الكتابة محل
الخطابة في بعض آخر كالسنارات وتحوير بعض ثالث تحورا كبيرا في بواعثه
وما آخذ به كالحض على القتال إذ صار للنتج والجهاد وكالامر بالمعروف والنهي
عن المنكر إذ صارت ما آخذ به من تعاليم الدين وكذا خطب الاملاك وقلماء بقي غرض
على حاله كالدعوة الى السلم

ب — في الشعر

يمتاز الشعر الجاهلي بعد الذي سبق في المميزات العامة بما يأتي

أولاً — اشتغال كثير منه على بعض الالفاظ الغريبة بالنسبة اليها نحن
لا إلى وسطهم هم فان ذلك جاء نتيجة لما أهمل بعد الجاهلية من أغراض كانت
كثيرة القصد فيها كوصف الابل وحمم الوحش والقسي ونحوها مما كان من

صميم البادية وهجر فهجرت لذلك الالفاظ التي كانت تؤدي بها معانيه
وأصبحت ذات غرابة علينا ولو بقيت تلك الاغراض مؤداة لكانت ألقاظها
وما نستسهله الآن سواء

ثانيا — جزالة الالفاظ وضخامة التراكيب ذلك بأنهم كانوا على تمام
علم ودراية بمفردات لغتهم والمواطن اللائقة باستعمالها ثم كانوا ذوي قدرة ولماقة
على التصرف في الاساليب بما يكسبها القوة والمتانة وبخاصة في الاغراض المتطلبة
لها كالحجاسة والفخر والوعيد والانذار ونحوها أما غيرها مما يقتضى رقة
كالنسيب مثلا فقد كانوا غالبا يتخيرون له من الالفاظ ما فيه عذوبة ومن
التراكيب ما هو ذو سلاسه

ثالثا — اتفاق بدء القصائد في التشبيب الذي لا يعدو الوقوف على الدمن
ومخاطبة الاطلال ووصف الطعون والتحرق على بعد المزار ونعت النوق التي
ترحل للحاق بالاحباب ثم وصف هؤلاء الراحلين على خلاف بينهم في اطالة
بعض هذه الجزئيات أو تقصيرها واستيفائها كلها أو إسقاط بعضها

رابعا — عدم حسن التخلص من غرض الى غرض في القصيدة الواحدة
فقد كان يحدث الانتقال فجأة دون تمهيد أو بتمهيد ضئيل لا يعدو أن يكون
لفظة أو اثنتين كدع ذا وعد عن ذا ونحوها وبمثل هذه المفاجأة كان
ينتهي القصيد

خامسا — اجادة وصف مظاهر البادية في كل ناحية من نواحيها وتسجيل
كثير من أوابد العرب عقائد وعادات. فالشعر الجاهلي وحده يكاد يكون المرجع
فيما عرف من هذه الاشياء بخلاف الشعر الاسلامي لبعده رجاله عن البادية سكنا
ولتغير أحوالهم العامة تغيرا كبيرا يجعلهم اذا عاجلوا ذلك عاجوه عن تكلف منهم

وتقليد لا سلافهم لا يصدر عن شعور ولا ينتزع من وجود

سادسا — تصويره للأشياء على حقائقها من غير ما مباينة بله الغلو
والاغراق اللذين كثرا بعد وإنما جعلهم كذلك أن كانوا على فطرة طبيعية
لا تكلف فيها وعلى جانب من الحرية لا يحد من فكر ولا يقيد في قول ويتضح
هذا جليا في الوصف كما يتضح في سائر فنون الشعر . فالمتغزل لا ينعث محبوبته
بالمستحيل من الصفات ولا يدعى لنفسه إذا نسب الموت في هواها دون موت .
والشجاع المتحمس لا يزعم أنه منزل الراضين محرك الراسيات . والفخور
لا يجاوز ما لنفسه وقيمته من محامد وتراث . والرائي لا يزعم بموت المرثي ظلام
الوجود واختلال نوااميس الحياة . وكذلك المدح والهجاء كان فيهما الاعتدال
إلا إسراف في الأول ولا إقذاع في الثاني إلا ما كان آخر العهد لدى بعض
الشعراء ممن اتخذوها وسيلة للتكسب رغبا ورهبا ومع هذا لم يصل إلى شيء مما
بلغاه بعد في سائر العهود

سابعا — شدة تأثيره في ذلك العهد أكثر من غيره كما بيناه آتفا حقا كان
أم باطلا لأن شعور القوم إذ ذاك كان أغلب على عقلهم شأن ذوي الفطرة
والسذاجة البعيدين عن تثقيف العلم وتقويم الحضارة

وبعد فإن فيما سلف من نماذج وغير نماذج لختارات النثر والشعر لايات
بينات على ما ذكرنا من خصائص ومميزات فليرجع إليها في ضرب المثل
والاستشهاد وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

تابع الفهرس

اللغة

٤١

نشأة اللغات وتعددتها	٤٣ — ٤١
اللغات السامية وأصل العربية	٤٦ — ٤٤
طرق نمو العربية وخصائصها	٥٢ — ٤٦
اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها	٦١ — ٥٣
معارف العرب في الجاهلية ومعتقداتها	٦٢

المعارف

٦٣

السماء وكائنات الجو	٦٤ — ٦٢
البيطرة والطب	٦٤ — ٦٤
التاريخ والانساب	٦٥ — ٦٤
القيافة والعيافة	٦٦ — ٦٥
العرافة والسكهانة	٦٧ — ٦٦
الخط العربي	٦٨ — ٦٧

المعتقدات

٦٨

الاديان	٦٩ — ٦٨
الاولاد	٧٢ — ٧٠

الادب الجاهلي

٧٣

إن لنا أن نطمئن اليه ندرسه ونرويه

٧٩ — ٧٣

إنا نقول بسبق النثر على الشعر

٨٥ — ٨٠

النثر

٨٦

أقسامه من مرسل ومزدوج ومسجوع ثم أنواعه وهي:-

٨٦ — ٨٦

الفهرس

أدب اللغة وتاريخه ٨ — ٣

العرب ٩

موطنها وأقسامه ٩

الحجاز ١٠ — ١٣

اليمن ١٣ — ١٥

العروض ١٥ — ١٥

نجد ١٥ — ١٦

مدن البوادي ١٦ — ١٦

أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها ١٧

أصلها ١٧ — ١٨

القحطانيون ١٩ — ٢٠

العدنانيون ٢٠ — ٢٢

أيامها الكبرى ذوات الأثر في الأدب ٢٢

بين نزار ويمن ٢٣ — ٢٤

حروب ربيعة ٢٤ — ٢٧

بين ربيعة وغيرها ٢٧ — ٢٩

بين اللخمين والغسانيين ٢٩ — ٣٠

حروب قيس ٣٠ — ٣٤

بين قيس وغيرها ٣٤ — ٣٥

أيام ذي قار بين العرب والفرس ٣٥ — ٣٦

أثر تلك الأيام في الأدب ٣٦ — ٤٠

تابع الفهرس

الحكم والامثال	٩٠ — ٨٦
المفاخرات والمفاقرات	٩٦ — ٩٠
الخطب والوصايا	١٠٤ — ٩٦
الشعر	١٠٥
أوليته عامة ولدى العرب خاصة	١٠٩ — ١٠٥
طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه	١٣٢ — ١١٠
تسجيله كثيرا من أحوال العرب	١٤٢ — ١٣٢
تأثيره ومنزلة رجاله	١٤٨ — ١٤٢
طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فهم	١٥٢ — ١٤٨
ثم سبب تسميتها بهذا الاسم	
منزلة المعلقات من الشعر الجاهلي	١٧٨ — ١٥٢
معلقة امرئ القيس	١٥٦ — ١٥٣
» طرفة	١٦٠ — ١٥٦
» زهير	١٦٣ — ١٦٠
» لبيد	١٦٧ — ١٦٣
» عمرو بن كلثوم	١٧١ — ١٦٧
» عنزة	١٧٤ — ١٧٢
» الحارث بن حلزة	١٧٨ — ١٧٥
مميزات الكلام الجاهلي	١٧٩
المميزات العامة في النثر والشعر	١٨١ — ١٧٩
» الخاصة بكل منهما	١٨٤ — ١٨١

الصواب	الخط - أ	س	ص
ذلك	ذلك ذلك	١٤٠ ١٣	٣
الشرقي	الغربي	٢٢	١٣
قائه	قاله	٢١	٢٤
كصر صرة	كصير	٨	٤٦
القاف	القاء	١٢	٤٦
انثنوا	انشوا	١٠	٥٩
النزاري	النزري	٥	٦٧
وله	ولم	٢١	٧٨
يقول	يقولوا	١٥	٨١
النثر	الشعر	٢٢	٨٣
كنغصني	كنغصن	٩	٩٥
يتعودوا	يتعودا	١٠	٩٨
بعثه	بعث	١٠	١٠٠
عبد المطلب	عبد الملك	١١	١٠٠
لهدي	لهوى	٤	١٠٥
حرصت	صرحت	٨	١٢١
داود	داود	١٩	١٢٨
إذ	إذا	١٣	١٦٦
كأبن	ابن	٧	١٧٧
فكأنهم	قانه منهم وهم	٨	١٧٧
الحقيقة	الحقيقية	١٣	١٨٠

10 DEC 1989

JC - LIBRARY

DATE DUE

19 FEB 1950

19 FEB 1950

32

C - LIBRARY

6.11039255
1.1119943x

10 DEC 1989



main

00000139889

PJ 7526 B29x 1932/c.2

